



مذاهب و شخصیات

# مسابغ اعلام الاسلام



تألیف  
اسرار الجندی

# مرآة اعلام الاسلام

اليوم والامة العربية في خضم معركة  
الوحدة والقوة والحرية ، نتطلع الى معالم  
البطولة في حياة هذه الصفوة من رجالنا ،  
هذه البطولة التي قامت على الايمان  
الصادق بالاهداف الرفيعة والمثل العليا  
والقيم الانسانية .

انور الجندي

« رأيت قوما الموت أحب اليهم من الحياة  
والتواضع أحب اليهم من الرفع ، ليس  
لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم  
كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم  
ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة  
لم يتخلف أحد منهم »

(قالها الجندي المجهول ردا على سؤال المقوقس)

# تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم :

شغلت نفسى بالدراسات العربية والاسلامية عشر سنين . قرأت خلالها عددا كبيرا من أمهات الكتب القديمة والحديثة والمجددة ، ولقد هدانى ايمانى بعظمة النفس العربية أن أقدم لها نماذج من ( اعلام العرب والاسلام ) الذين كانوا مثلاً أعلى فى الفكر والحكم والحرب . من الذين مازالوا الى اليوم متأثر تهدي الى الحق والقوة والعدل ، وترسم لنا الطريق الى القدر العظيم المأمول ، الذى تتكشف بشائر فجره ، وتتوالى علائم مشرقه .

ذلك أننا نؤمن بالسبيل الوسط ، لا ننحرف الى مذاهب الشرق أو مذاهب الغرب ، هذا السبيل الذى تتأكد فيه شخصيتنا العربية فى ملامحها القوية الواضحة . هذه الملامح التى تستمد عناصرها الاصيلية من أمجادنا وتراثنا وتاريخنا من ناحية، ومن الحضارة الانسانية فى ارقى عاومها وفنونها واختراعاتها من ناحية أخرى . يمتزج ذلك كله ويتداخل فلا يطفى طرف منه على طرف . ولا يذهب بنا الى محو شخصيتنا بالنوبان فى مادية الحضارة . ولا يتوقف بنا الى حدود ماضينا وحده بتجميد صورتنا . وانما نقف موقف المرونة فى التلقى والمزج والاذابة فى كياننا ، فننتجدد دائما . ولا نتوقف أبدا . ونجرب مع تيار التطور شخصية واضحة وقوة فاعلة تؤثر ولا تخرج عن نطاق كيانها الحالى الباقى على الزمن .

ولقد آمنت أيضا بأن الزمن قد دفع الناس الى السرعة ، ولم يعد لدى القارئ من الوقت ما يمكنهم من استيعاب البطولات وهم لذلك يؤثرون المختصرات التى يمكن أن تقدم عصارات مركزة ، حديثة العرض ، سلسلة العبارة ، جيدة الأداء عن البطولات . لذلك أثرت أن أقدم أكبر مجموعة من صور الاعلام بسيطة مركزة ، وفق أحدث أساليب كتابة التراجم وفى ضوء علم النفس .

وقد رأيتنى أقف طويلا عند « البطولات » فى حدود المثل الأعلى . وبهرتنى مواقف رائعة تجلت فيها عظمة الشخصية عندما تحقق نصرا أو تحول تاريخا أو تدك قديما باليا . أو تمزق ماضيا مهلهلا .

لذلك حاولت أن أرسم لهؤلاء الاعلام صورة نفسية : من أعماق الحياة وغاية رجائى أن أكون قد وفقت فى محاولة دراسة الشخصية العربية فى هذه الصور ، وفق الأسلوب الحديث فى دراسة التراجم وكتابة السير والله الموفق .



✽ ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

## عمر بن الخطاب

عن نافع أن رفقة من التجار قدموا المدينة فذهب عمر بن الخطاب وهو خليفة يحرسهم ومعه عبد الرحمن بن عوف فسمع بكاء صبي فتوجه عمر نحو أمه . وقال لها : اتقى الله واحسنى الى صبيك . ثم سمع بكاء مرة ومرة . فلما كان من آخر الليل سمع بكاء فأتى أمه فقال : ويحك . انى لأراك أم سوء . مالى ارى ابنك لا يقر منذ أول الليل؟ قالت : قد أضجره منذ أربع ليال أمر الفطام . قال : ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض من بيت المال الا للطفل الفطيم . قال لها لا تعجلية . فصلى الصبح وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر . كم قتل من أولاد المسلمين . لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فاننا نفرض لكل مولود .

تلك صورة من جوانب شخصية عمر تمثل « اليقظة » وهذه صورة أخرى .

بينما كان عمر بن الخطاب يخطب بالمدينة خطبة الجمعة : التفت من الخطبة ونادى : « يا سارية بن حض ! الجبل الجبل . ومن استرعى الذئب ظلم » . فلم يفهم السامعون مراده ، فلما قضيت الصلاة سألته على . فقال عمر : أوسمعت ما قلت ؟ لقد وقع فى خاطرى أن المشركين هزموا اخواننا وأنهم يعمرون بجبل فان عدوا اليه قاتلوا من وجدوه . وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام . ثم جاء بعد من ميدان القتال من ذكر أنهم سمعوا صوتاً فى تلك الساعة يشبه صوت عمر يقول « يا سارية الجبل » قال فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

وهذه تمثل « الالهام » .

مر عمر فى سوق المدينة فرأى اياسا بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه بالدرة ، وقال له : أمط عن الطريق يا بن سلمة .

ثم دار الحول ولقيه فى السوق . فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . فأخذ بيده وأعطاه ستمائة درهم . وقال يا بن سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول . قال اياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتها . فأجابه عمر : انا والله ما نسيتها

وهذه صورة « الوفاء » .

ساوم مرة رجلا على فرس يريد أن يشتريه منه فركبه ليجربه فعثر  
الفرس وكسرت ساقه فقال للرجل: خذ فرسك . فأبى الرجل، فطلب منه  
عمر أن يختار حكما يتخاصمان أمامه . فاختار صاحب الفرس ( شريعا )  
فتحاكما اليه فقال : يا أمير المؤمنين : خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت . فأجاب  
عمر : وهل القضاء إلا هكذا : سر الى الكوفة قاضيا .

وهذه صورة « العدل » .

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه :

ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا متخفيا . الا عمر بن الخطاب  
فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده سهمها واختصر  
عزته ( عصا لها زج كالرمح الصغير ) ومضى قبل الكعبة ، والملا من قريش  
بفنائها . فطاف بالبيت سبعا متمكنا . ثم أتى المقام فصلى . ثم وقف على  
الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شأهت الوجوه . لا يرغم الله الا هذه  
المعاطس . من أراد أن يشكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجه فليلقني وراء  
هذا الوادي .

وهذه صورة « الشجاعة » .

ومن هذه الجوانب تبدو صورة عمر : قوية عادلة وفيه يقظة ملهمة .  
الشخصية القوية المدلة بقوتها حين تنتقل من صف الى صف ، وهي  
تحمل نفس الايمان المكين ، وتندفع في الطريق الى كل مكان جلست فيه  
بالشرك لتجلس فيه بالاسلام .

وهو هو الانسان الممتاز طوال حياته ، صاحب الشخصية الواضحة  
القوية التي كانت تقول رأيها في وضوح ولا تبالى أن تختلف مع الرسول  
نفسه . وقد كان عمر مهيبا حتى كان الرسول يهابه ويحترم رأيه .

عندما وقع الرسول عقد الحديبية وقفل عائدا مضى عمر فحاذاه وأخذ  
يراجعه ويقول له : يا رسول الله انعطى الدنيا في ديننا . ولم يسترح حتى  
قال له اننى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا .

وروى عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه . قال استأذن عمر  
على رسول الله وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن .  
فلما استأذن عمر فمن يبتدرن الحجاب . فأذن له الرسول فدخل .  
والرسول يضحك فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . قال :  
عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال  
عمر فأنت يا رسول الله كنت أحق أن تهاب . فقال عمر : أى عدوات  
أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : نعم . ان فيك غلظة . قال  
النبي : يا عمر والذى نفسى بيده : ما لفيك الشيطان قط سالكا فجاء الا  
سلك فجاء غيره .

وهو الذى لم يغنه فى الخمر البيان الأول . وطفق يسأل حتى نزل



فيها بيان شاف . وإشار بقتل الأسرى في بدر وخالفه الرسول وأبو بكر .  
ونزل القرآن موافقا رايه (١) .

وهكذا كان واضح الشخصية في حياة الرسول يشير عليه ويراجعه  
ويطلع رايه ولا يرجع حتى يقتنع . وقال الرسول عنه : « أن الله جعل الحق  
على لسان عمر وقلبه » .

وكان الى هذا جرى الرأى فيه عاطفة حادة لا يحب الوسط من  
الأمور .

عندما رأى إبا سفيان في معسكر المسلمين ليلة فتح مكة دخل على  
الرسول يطلب اليه أن يأذن له بقتله . وكذلك فعل في كل موقف رأى  
فيه هجوما على الاسلام أو الرسول .

وبلغ من جرأته أنه عندما جاءت الرسول غمرة الموت دعا بطرس على  
على المسلمين كتابا قال : ان النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله .

ولكن اندفاعه ذلك لم يكن يمنعه من أن يخطي : لما توفي رسول  
الله بكى الناس فقام عمر خطيبا في المسجد فقال : لا اسمعن أحدا يقول ان  
محمدا قد مات ، ولكنه أرسل الله اليه كما أرسل الى موسى بن عمران .  
والله اني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات . وأقبل  
أبو بكر فأسكت عمر وتلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله  
الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » هنالك لم تحمل عمر رجلاه  
وهوى الى الأرض .

ومن قوة شخصيته أنه اعترف بخطئه عندما وقف يقول : لا تزيدوا  
مهور النساء على أربعين أوقية . قالت امرأة : ان الله يقول : « وآتيتهم  
أحدهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وظل عمر معروفا بوضوح الرأى وقوة العاطفة ، والطبيعة الزاهدة .  
حتى ولى الخلافة فعرف بالعدالة المطلقة التي بلغت غايتها وحدودها . والتي  
امتدت الى أهله قبل الناس جميعا . فكان من نصيبهم مضاعفة الجزاء في  
العقوبة والدرجات الأقل في العطاء . فلم يول عمر أحدا من أهله إبان  
خلافته . ولكنه عندما أقام الحد على ابنه ومات قبل أن يتم ، أمر أن  
يستوفى وهو ميت .

وكان بعيد النظرة ، أكسبته الحياة خبرة وتجربة عميقتين . قال  
رجل لعمر : ان فلانا رجل صدق . قال : هل سافرت معه أو أئتمنته ؟  
قال لا . فقال : لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد .

(١) وذلك في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي تحريم الخمر حين  
قال : اللهم بين لنا في الخمر فأنها تذهب المال والعقل فنزل قوله تعالى :  
« يسألونك عن الخمر » الخ . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا  
فحرمت في الصلاة فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزل قوله  
تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان  
فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وموافقته في ترك الصلاة على المنافقين وفي  
الاستئذان وموافقات أخرى كالأذان وغيره .

وكان يكره المغالاة حتى في العبادة . لما رأى شاباً منكسباً رأسه في المسجد صاح به : ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال للرجل المنطوى في ذلة بعد أن علاه بالدرة : لا تمت علينا ديننا .

وكان واضحاً في إيمانه ، قويا ، لا يقبل إلا كل صريح وحق . لما قبل الحجر الأسود قال : اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وكان عمر خشنا شديداً ، ضرب المثل في الخشونة والشدة . قال عمر : والله انا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً . حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل في وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر أثمره ، إذ قالت لي امرأتى : لو صنعت كذا وكذا فقلت لها : وما لك أنت وهذا . فقالت لي عجباً يا بن الخطاب : ما تريد أن تراجع أنت وان ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان .

وقد كان عمر يحب الغناء ويطيل الاصغاء اليه ولكنه كان ورعاً . روى أنه بينما كان متجهاً الى مكة في جوف الليل سمع صوتاً يغنى فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى مطلع الفجر . ثم قال للقوم : ايه قد طلع الفجر ، اذكروا الله .

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة صعد على المنبر وقال : اللهم اني غليظ فليكني لاهل طاعتك بموافقة الحق . وارزقني الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق . اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير .

بلغني أن الناس هابوا شدتي . وخافوا غلظتي . وقالوا : كان عمر يشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف اذا صارت الأمور اليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . كنت سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فامضي . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله . ثم اني وليت أموركم . فاعلموا أن تلك الشدة ضوعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدي . فأما أهل السلامة والدين والفضل فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . فاذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم ولكم على ألا أجتني شيئاً من خراجكم الا في وجهه .

وقد وفي عمر لمهام عمله كحاكم أصدق وفاء حتى يروى على ابن أبي طالب فيقول : رأيت عمر على قتب ( بعير ) فقلت يا أمير المؤمنين : أين تذهب ؟ فقال : بعير ند ( شرد ) من ابل الصدقة أطلبه . فقلت لقد أذللت الخلفاء من بعدك . فقال عمر : يا أبا الحسن لا تلمني . فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً ( عنزاً ) ذهبت بشاطئ الفرات لستل عنها عمر يوم القيامة .

وكان لا يشغله الا الولاية يتخيرهم ويسأل عنهم : قال لأصحابه مرة : دلوني على رجل استعمله . قالوا : وما شرطك فيه . قال : اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم

وكان اذا ولى واليا كتب عليه العهد الا يركب يردونا ولا ياكل نقياً ،  
ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلّق باباً دون حاجات الناس .

وكان يقول : أشقى الولاة من شقيت به رعيته .

وكان غيوراً على الناس يدفعهم ويحول بينهم وبين الشر : يقول : ان  
قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله تعالى . أما وأنا حتى فلا . الا أنى  
أخذ بحلاقم قريش عند باب الحرة أمنعهم من الوقوع فى النار .

وقوله : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتباع قائده فلينظر قائده  
حيث يقود . أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق .

وكان رايه فى الرجال عميقاً بعيد المدى - يقول : الرجال ثلاثة رجل  
ذو عقل ورأى فهو يعمل عليه ، ورجل اذا حزبه أمر أتى ذا رأى فاستشاره  
ورجل حائر لا يأتى رشداً ولا يطيع مرشداً . وقال يوماً لمن حوله : ارايتم  
اذا استعصمت عليكم خير ما أعلم ثم أمرته بالعدل اكننت قضيت ما على ؟  
قالوا : نعم . قال لا . حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما أمرته أم لا .

وله فى أمر الحرب والجيوش المحاربة مواقف تدل على مدى يقظته  
وصدق عزمته وإيمانه . يقول لسعد بن أبى وقاص : تفرق بالمسلمين فى  
سيرهم ولا تجسمهم مسيراً يتعبهم ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى  
يبلغوا عدوهم . والسفر لم ينقص من قوتهم . واقم بمن معك فى كل جمعة  
يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم .

وكان يكتب لكل قائد من قواده : صف لنا منازل المسلمين والبلد  
الذى بينكم وبين المدائن . صفه كأتى أنظر اليه واجعلنى من أمرهم على  
الجلية .

ويقول : « أنت الشاهد وأنا الغائب . والشاهد يرى ما لا يرى  
الغائب » .

ولما زار أبو سفيان ابنه معاوية والى الشام ورجع من عنده دخل على  
عمر ، فسأله عما حمل معه من الشام فأذكر أبو سفيان أنه أحضر معه  
شيئاً . فمد عمر يده الى أصبع أبى سفيان وخلع خاتمه ثم أعطاه لرسوله  
وقال له : اذهب الى هند زوجة أبى سفيان وأعطاها هذا الخاتم ، وقل لها  
ان أبى سفيان بعثنى فيما أحضره معه من الشام فصدقت هند وسلمته  
خرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

وكان من فرط حرصه على العدل يأتى مجزرة الزبير بن العوام ومعه  
الدرة فان رأى رجلاً اشترى لحماً يومين متتابعين ضربه بالدرة وقال : الا  
طويت بطنك يوماً .

وقد جعل موسم الحج موسماً عاماً لمحاسبة الولاة . ووضع نفسه  
مثلاً لولائه فقال : لا يحل لأمر من مال الله الا حلتان : حلة للشئاء وحلة  
للصيف وما أحسج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس  
أغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين .

وقد كان حفيا بالفقراء يقول : يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد  
وضح السبيل فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

ويقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال  
الاغنياء فقسمتها على الفقراء .

وكان عمر متواضعا خشنا لا يحب المظاهر البراقة ولا يتعالى ، فيه  
زهادة واضحة . عندما قدم الى الشام كان يركب حمارا تبادل ركوبه مع  
خادمه وعليه جلباب .

وكان يستطلع أنباء المحاريين فيخرج من المدينة ويوغل في الطريق  
حتى يلقي من يسأله . ولقى مرة رجلا قادما من فارس فسأله عن المسلمين  
فذكر له الرجل انتصارهم واستشهاد النعمان بن مقرن فهاله النبا ، وآدته  
المصيبة فبكى ونشج . فلما رأى الرجل ما دهاه أراد أن يخفف عنه فقال  
يا أمير المؤمنين : ما قبل بعده من رجل يعرف وجهه ( أى من سواد الجند  
ليس فيهم قائد ) فلم يشغل عمر بكاؤه على النعمان من الرد عليه فقال :  
لكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم !!

وهو مثل للناة . قيل له رجل ارتد . قال فماذا فعلتم به ؟ قالوا :  
قتلناه . قال : هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتهم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا  
فاستتبتموه ، فان تاب والا قتلتموه . اللهم انى لم أشهد ولم آمر ، ولم  
أرض اذ بلغنى .

وكان لا ينام الليل ويقضى يومه يقظا . بعث أحد الولاة رسولا الى  
عمر فلما وافى المدينة ليلا قال : أنام فى المسجد حتى اذا أسفر الصباح  
أبلغت الرسالة . فلما دخله سمع صوتا خافتا يناجى فقال السلام عليك  
يا أخا العرب .

فقال عمر : من !!! يرحمك الله . قال انى رسول والى مدينة كذا الى  
أمير المؤمنين . قال له : تعال هنا وقل ما عندك . أنا عمر . فعجب الرسول  
وقال له عمر : بشس ما ظننت يا أخى كيف أكون مسئولا وأنا . والله لو  
نمت نهارى لضيعت الرعية ولو نمت ليلى لضيعت نفسى .

وفى معنى القوة فى شخصية عمر حديث الرسول عنه : أريت فى المنام  
أنزع بدلو يكرى على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا .  
والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا . فلم أر عبقرى  
يفرئ فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن . وقد تحققت نبوءة الرسول  
فى حكمه الطويل . وقد كان عمر مطبوعا على الحق لا يهاب فيه أحدا .  
وموقفه مع ابن عمرو بن جبلة بن الايهم وأبى سفيان يعطى المثل فى  
ذلك . ومن حسابه لنفسه أنه حرم على نفسه الطعام عندما أصابته  
المسلمين المجاعة ، واكتفى بالزيت حتى اسود لونه .

وكان يمتنع أن يأخذ من بيت المال قرضا حتى لا يتركه الناس له  
اذا مات قبل أن يسدده . وقال بشس الوالى أنا - ان شبعتم - والناس  
جياع .

وكان الى هذا الزهد مخيفا حتى لقد رفضت النساء انزواج منه والعيش معه وقالت عنه احداهن انه خشن العيش شديد على النساء .

وقد أمن الناس منه طابع الشدة والصرامة حتى ليقول للرجل مرة اننى اكرهك فيقول له : هل ينقص ذلك من عطائى ؟ فاذا قال له عمر : أن لا ، قال الرجل : اذن لا يبكى على الحب غير النساء . وهذا معنى من معانى التجرد الخالص الذى يفصل بين العواطف والحقوق .

وكان يحصى ثروات الولاة قبل أن يوليهم ثم يحاسبهم كل عام ويدعوهم أن يحضروا الى المدينة نهارا . ويسأل عنهم أهل اقطارهم في مواسم الحج ، ويرسل اليهم من يتعرف اعمالهم . ويحرق باب البيت الذى بناه سعد بن أبى وقاص والى الكوفة ويقول له : ان بيت الوالى لا باب له ..

وكان قد عزم على أن يزور الاقاليم كلها ليتعرف حاجات الناس واعمال الولاة ، لولا ان أدركه الموت . وقد حاسب خالدا واقتسم معه نعايه . كما حاسب عمرو بن العاص وابا هريرة .

وله قصص فى البحث عن الرعية ليلا . وقصته مع أم الطفل الرضيع ومع بائعة اللبن التى كانت تخلطه بالماء . والزوجة التى غاب زوجها فى الحرب . والمرأة التى كانت توقد للاطفال على الماء حتى يناموا . ويذهب بنفسه فيحرس التجار الذين يقدمون ليلا . ولا يعهد بهم الى غيره . ويعالج اهل الصدقة بنفسه ويمر على بيوت الغائبين فيسأل ويقرأ البريد ويكتب لهم الردود . ويشترى لهم حاجتهم من السوق .

وقد قضى للطفل منذ ان يولد ، واعطى العاجز ولو كان يهوديا . وفرض للمولود النقيط ، وأمر بأن يعود المحاربون بعد فترة الى أهلهم . وكان لا يقضى بالحد الا بعد أن يستنفد كل أسباب الشك فى القضية . وكان يحاول أن يجد مندوحة عنه ويقول : « اذا رأيتم أخوا لكم زل زلة فسدوده ووقفوه وادعوا الله أن يتوب عليه » .

وهو كحاكم يفار على المرأة ويرفض اقامة الشاب الذى ناجته المرأة أن يبقى بالمدينة ، ويفار من كل ما يختلف مع طبعه . فقد خفق بدارته الرجل الذى رآه يتبخر فى الطريق وآخر يتكلف الخشوع فى المسجد . كما ضرب بالدرة الامة التى رآها تتشبه بالحرائر . وسام الحطية على ترك هجاء الاعراض فى مقابل ثلاثة آلاف درهم .

ومن قوله : من كنتم سره كان الحيار فى يده . أعقل الناس أعذرهم للناس . من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه . اشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القوى . لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلقا . تفقهوا قبل أن تسودوا . ارووا الاشعار فانها تدل على الاخلاق .

ولقد حكم عمر عشر سنوات كانت من أبرز سنوات الاسلام حياة وجهادا وقوة ، جمع القرآن بعد أن استحر القتل فى القراء . فتح فى عهد العراق والشام ومصر .

وترك ذكرا ضخما وصورة جبارة للحاكم العادل .

✽ قضية ولا أبا حسن لها •

## على بن أبى طالب

تعطيك أحداث حياته منذ فجرها الى نهايتها صورة « الورع »  
مظهرها هذه الزهادة المؤمنة مع الشجاعة التي لا تحس معها ميلا الى الطمع  
فى الوصول الرخيص •

رهو على صفته من « الورع » لا يتحول مع الزمن • ولا يترك شعيرة  
من شعائره خلقه أو شميلة من شمائل طبعه فى سبيل مواجهة موقف من  
المواقف بالقدر أو الخداع أو بالحيلة •

وقد تغيرت الدنيا بعد عمر ولكن عليا لم يتغير واختلقت وسائل  
الناس فى فهم الامور وقبولها والافتناع بها وبقي هو على طابعه من الشجاعة  
والمروءة والعدل ، لا يحيد ولا يمالئ ولا يحابى فى الحق الذى اعتقده •

لا يعرف البغى ولا يفدر بخصمه قبل المعركة ولا فى خلالها • فاذا  
انتصر عليه عامله بخلق السماحة والمروءة ، وهو مع ثقته بأنه على الحق ،  
وقدرته الحربية على الظفر لا يبدأ بخصومة ويجنح الى السلم ويقبل رأى  
أنصاره •

ولى الخلافة والدنيا من حوله مضطربة بالفتنة والحلاف والصراع .  
ولكنه ظل على طبيعته واستعداده محتفظا بمثله العليا يريد أن يعود بالناس  
مرة أخرى الى نهج النبى وطريق عمر • وكان ذلك عسيرا ، فان الفترة التى  
قضاها عثمان فى الحكم غيرت كل شئ ، وفتحت الكثير من الأبواب ومروا  
الناس خلالها على أوضاع وأساليب لم يكن من اليسير ردهم عنها بعد •

ذلك أن عثمان بحكم سنه المرتفعة وطبيعته العاطفية وفهمه للحياة ،  
وغنائه وراثته وحبه لاهله والمقربين اليه ، جعل من العسير على « على » أن  
يعيد الناس ، ولم يكن فى طبع على ما يجعله يجارى أهواء الناس ويخضع  
لطامعهم •

وكانت هذه نقطة الارتطام فى خلافته خلال خمس سنوات كانت  
حربا مستمرة بين على وبين مثيرى الفتن وبين على وبين من كانت لهم ضلع  
قوية وعضد متين فى تأليب الناس بعضهم على بعض •

كان عنوان هذه الحروب « الطمع » من ناحية مثيريها • وكانت من  
ناحية على ايمانا بحق الحاكم الذى لم يتقدم للحكم ، والذى عندما طلب  
اليه تردد • فلما وجد الامر يتعلق بالشهامة والمصير العام قبل المسئولية  
وتقدم •

وقد سجل هذا على حين قال : « لقد آتيتموني فقلتكم لى بايعنا فقلت لكم لا أفعل وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتمكم كفى فجذبتموها . وقلتكم لا نرضى الا بك ولا نجتمع الا عليك . فبايعتموني وبايعنى طلحة والزبير . ثم ما لبثا ان استأذنا للعمرة فسارا الى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الافاعيل » .

لقد شهد على الناس وهم يتحولون من حكم عمر الى حكم عثمان . وقد خرج اصحاب الرسول من مكة الى الامصار ، وفتحت الامصار ، وتدفقت الأموال ، وتوقف الجهاد أو كاد ، وشمل الناس جو من الحياة الهادئة اللينة . .

فكان طبيعيا ان تشور المطامع وان تلبس أثوابا من المطالبة بدم عثمان أو غيره من التعلات .

ربى « على » فى أحضان الاسلام . وكان ثالث ثلاثة دخلوا فى الدين الوليد : خديجة وأبو بكر . ونشأ وفى دمه هذه الصورة الحلوة الرائعة ، صورة رسول الله فى حربه وسلمه وزهده وتقشفه وحكمته وعلمه . وكان يخرج مع الرسول وخديجة يصلون فى الشعاب . وعرف منذ شبابه بالشجاعة . وهو الذى اختاره الرسول لينام فى فراشه ليلة الهجرة ، وحيث التحف ببرده الاخضر وقضى ليلته . وقد قبل ذلك وهو يعلم ان قريشا تأتمر بالنبي لقتله ، وهاجمه القوم فى أول الصباح ، ولما لم يجدوا محمدا فى الدار أوسغوه ضربا وحبسوه فى المسجد وأقاموا عليه الحراس والارصاد .

وقد خاض المعارك كلها الى جوار رسول الله . وكتب عقد الحديبية . وتلا صدر براءة فى العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس حيث ارتضى الرسول ان يؤدى عنه هذا ، رجل من أهل بيته .

وقد عرف عنه أنه ما صارع أحدا الا صرعه . لم يبال الحر ولا البرد . كان جريشا على الموت . خرج « لعمر بن ود » فى معركة الخندق عندمانادى : هل من مبارز ؟ فلما رآه عمرو قال له : ان من أعمامك من هو أشد . وانى أكره ان أريق دمك . قال له على : ولكنى والله لا أكره ان أريق دمك . . فهوى عليه بسيفه فتلقاه فى درقته ، ثم ضربه على فقتله .

وكان فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان الناصح المشير .

وقد كان قاضيا فقيها : حتى قيل « قضية ولا أبا حسن لها » وكان يقول : سلونى عن كتاب الله . فو الله ما من آية الا وأنا أعلم انزلت بليل أم نهار . فى سهل أو فى جبل . وروى عن قيس بن عباد قال : دخلت المدينة التمس العلم والشرف فرأيت رجلا عليه بردان . له صغيرتان واضعا يده على عاتق عمر ، فقلت : من هذا ، قالوا : على بن أبى طالب .

وكان يردد دائما قوله : ألا انبئكم بالفقيه حق الفقه . من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم من معاصى الله ولم يؤمنهم من مكر الله

وقد أحبه الرسول وآخاه بنفسه مرتين ، وزوجه من ابنته فاطمة وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى . الا أنه لا نبي بعدي .

وقد اشترك في قتال بدر وسنه عشرون عاما كما اشترك في أحد والخندق . وأرسله الرسول في أثر القوم بعد أن انصرفوا من أحد ليعرف ماذا يكون من أمرهم ، فلما رآهم يركبون الإبل عرف أنهم قصدوا الى مكة فعاد الى الرسول يبلغه الامر .

وفى خيبر امتنعت الحصون على المسلمين بعد أن جهد أبو بكر يوما وعمر يوما آخر . وقال الرسول : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . ليس بالفرار . وبات المسامون يحزرون من سيكون ، فلما أصبح الصباح أعطى الراية لعلي .

وقد فتح له . وشدد على المشركين ، وكان يضرب على الهامة فيسمع أهل العسكر صوت الضرب فتراجع العدو وانكسر وأسلمت الحصون للمسلمين .

وقد حدث له أن أراد مدافعة عدوه فاجتذب باب الحصن فالتقاء على الأرض ثم اجتمع عليه سبعون رجلا حتى أعادوه .

وكان يستحي من المورات . وقد ترك طلحة بن عثمان فلم يجهز عليه في أحد لانه كشف عورته . وأصابته في هذه المعركة ست عشرة ضربة ولم يبال بها . فقد كان يحمل لواء الرسول بعد أن قتل مصعب بن عمير . وقد وقف يناضل عنه ويدافع حين تفرق المسلمون .

وقد بعثه النبي الى همدان فأسلمت في يوم واحد .

ولم يندب على خلال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لقيادة الجيوش . ولم يدع الى الولاية والامارة - ولم يدع أحد من أهل بيته - ولقد صور عمر مرمرى هذا حين قال للعباس : انى رأيت رسول الله يستعمل الناس وترككم . والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تباعدوا بمنزلتكم منه .

وقد توقف « علي » عن البيعة لأبى بكر أول الامر ، ثم بايع ، وكان فريق من المسلمين يرونه أحق بها .

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان وقف منها موقفا دقيقا غاية الدقة ، فقد كان يخالف عثمان الرأى في بعض الامور ، وكان الناس يقصدونه ويكلمونه في تصرفات عثمان وأتباعه .

وحين انتهى الامر بمقتل عثمان . وصل الامر اليه على هذه الصورة من الخطر والفتنة والمطامع . فواجه الموقف على طريقته وأسلوبه . فأغضب ولم يرض . كان طلحة يطمع في ولاية العراق والزيبر في ولاية اليمن ولكنه عزل ولاية عثمان وولى بدلا منهم ولم يولهما ، فانتقضا عليه . كما عمد الى استرداد الاقطاعات التي وهبها عثمان للمقربين وضمها لبيت المال . ولكن معاوية رفض أن يبايع لعلي ودعا الى نأر عثمان وطالب بدمه باعتباره وليه . واتسعت الفتنة وقمعها على بالحرب وانتصر ، ولكن أنصاره اختلفوا وصنع



الدعاء مع معاوية وتابعه عمرو بن العاص ما لم يفعل الورع مع علي وتابعه  
أبي موسى الأشعري الذي عزل صاحبه فقام عمرو فثبت صاحبه . ورد  
أم المؤمنين عائشة ، التي خرجت مع الزبير وطلحة معززة مكرمة بعد  
هزيمتها وصاحبها في معركة الجمل .

ولم ينخدع علي عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على السيوف ،  
ولكن أصحابه أرغموه . ولم يقبل التحكيم ولكن أصحابه غرضوه عليه .  
فلما قبله خرجوا عليه .

وهنا أراد القدر أن يضع النهاية لهذه الحياة التي واجه صاحبها في  
خلال أمد خلافته القصيرة مزيدا من الفتن والمتاعب والصراع الداخلي بين  
المسلمين ، فخرج ثلاثة يريدون أن يخلصوا الحكم من رجاله الثلاثة : علي  
ومعاوية وعمرو . ففشل اثنان ونجح الذي أراد عليا . الخليفة الزاهد .  
نجح لأن عليا في الحقيقة لم يكن من أهل الدنيا في صراعها الذي بلغ غايته  
وترك معاوية وعمرو لانهما أقدر على مواجهة الحياة بأساليب السياسة  
والمكر والدهاء .

وكان هذا عنوانا على ختام دور الخلفاء الراشدين ، في صورته  
النبوية العمرية الدقيقة .

ولقد كان علي زاهدا حقا : يقول يا دنيا غري غري .

وكان حكيما لا يرضى في صراع الحياة بالتجهم فيقول : اجموا  
( أريحوا ) هذه القلوب والتمسوا لها طريق الحكمة فانها تعمل كما تعمل  
الابدان .

وكان مسلكه عمريا في حكمه حتى انه رفض أن يعطي اخاه «عقيلاً» من  
بيت المال . وقال له : اصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد . فغضب  
وفارق عليا وقصد معاوية في الشام .

ولم يكن علي يستأثر بشيء من الفء ولا يخص به حميما ولا قريبا  
ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والامانات .

✽ لقد كان سددا لنحور العدو ميمون النقية •

## فالدرب الوليد

« لقد شهت مائة زحف او زعاهما .. وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف او رمية بسهم او طعنة برمح - ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير . ما من عمل أرجى عندى وأحب بعد أن لا اله الا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين .. وما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بفلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين » .

كانت هذه عبارة خالد الاخيرة قبل أن ينزل الستار على حياته الحافلة .. لتصبح بعد ذلك قصة خالدة فى فم التاريخ .

مائة زحف انتصر فيها خالد فى الجاهلية والاسلام . وفى مدى امتد أكثر من ثلاثين عاما . بدأه فى مكة وختمه فى قنسرين . ومضى رافعا سيفه فى وجه العدو فى شبه الجزيرة العربية الى العراق ثم الى الشام . وهو حيث يمضى ، الفارس المنتصر ذو الراى فى الحرب والتنظيم . وذو الحيلة والخدعة للخصوم . وذو البأس الشديد على الكفار وزعماء حروبهم وقادة جيوشهم .

وله فى ذلك مواقف غر خالدة : يوم أجرى البحر بدم خصومه . ويوم اليمامة . ويوم مقتل مسيلمة . وهزيمته لطلحة بن خويلد . ومقتل مالك بن نويرة . وجولاته المظفرة فى حرب الردة . وفى ذات السلاسل والمزار والولجة واليس ومفیشا وهجمات فى الحيرة وعين التمر والأنبار ودومة الجندل والفراض على شاطئ الفرات وموقعة عقرباء الطاحنة .

ومسيره بالجيش من العراق الى الشام فى مفازة لا ماء بها ، يوم أعطش الابل ثم سقاها وكم أفواهاها ومضى ينحرفا فى مراحل الطريق فيروى الناس والخيل . ومواقفه فى اليرموك ودمشق وحمص وقنسرين وكان خالد فى هذه المواقع قدبرا على احراز النصر بالتكتيك الحربى المبتكر يعرف كيف يقوى الروح المعنوية فى جنوده وأتباعه . ويعرف كيف ينظم الجيش ويقسمه الى كراديس .

وعندما وصل الى الشام وجد جيوش المسلمين تقاتل متساندة كل قائد على حدة . عمرو فى فلسطين . وأبو عبيدة فى حمص . وابن

أبى سفيان في دمشق . فلم يوافق على هذه التجزئة . واقترح عليهم تبادل قيادة الجيش الموحد وقال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغي له الفخر . اخلصوا جهادكم وارضوا الله ولنتعاور الامارة ولكن عليها بعضنا اليوم . والآخر غدا والآخر بعد غد . لا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة . وأنتم على انتشار وتساند » .

وقد كان من نتائج هذا انتصار المسلمين في اليرموك .

وكان خالد بطبيعته المحاربة اليقظة : لا ينام ولا ينام . ظل يترقب حول سور دمشق حتى عرف أن فرحا أقيم لمناسبة ميلاد طفل للبطريرك وأن الجنود ذهبوا الى هناك ، وعندئذ هاجم السور من مكان ضعيف واقتحم المدينة .

وعرف كيف يعالج نفسيات الجند فأمر أن تسير فرقة من نساء العرب مع الجيش لتقوى من عزم الجنود وتدفعهم الى الحماسة في الحرب .

واستعمل نظام المؤخرة ، واسلوب المفاجأة ، وطريقة التطويق . وعندما واجهته الخنادق لم يتوقف ، نحر ضفاف الابل من جيشه والقى بها فيها ثم أمر الجيش باقتحامها .

وعرف بالقسوة القاسية في قتال اهل الردة ، يقتل دون رحمة او شفقة . فيقطع الرقاب ويدمر القرى . حتى وصف عمر سيف خالد بأن فيه رهقا .

وعندما اجتمعت عليه الجموع في « اليس » دعا الله ان منحه اكتافهم الا يستبقى منهم أحدا حتى يجرى النهر بدمائهم . فلما تمكن منهم ظل يأمرهم حتى اذا انتهى من المعركة أمر بضرب اعناقهم في النهر فجرت دماؤهم مع مياه النهر ثلاثة أيام .

أسلم خالد متأخرا . فقد كان على رأس جيش قريش في موقعة احد ، وكان عاملا من عوامل هزيمة المسلمين فيها . وظل على رأيه في الاسلام الى ما بعد عمرة القضاء .

وكان قد شهد المسلمين في الحديبية . ورأى رسول الله هو واصحابه بصفان يصلى . فقام وراءه وتعرض له . يقول خالد : « صلى النبي باصحابه الظهر اماما . فهممنا ان نغير عليه ثم لم يعزم لنا وكان فيه خير . فاطلع على ما في انفسنا من الهجوم به فصلى باصحابه العصر صلاة الخوف . فوقع ذلك منى موقعا . وقلت « الرجل ممنوع » واقتربنا . فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعه قريش بالسراج قلت في نفسي : اى شيء بقى ؟ ابن المذهب ؟ الى النجاشي ، فان اتباع محمد واصحابه آمنون عنده ؟ أفاخرج الى هرقل . فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ؟ أفاقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ » .

وبينما هو في هذه الحيرة دخل الرسول مكة في عمرة القضاء .

وسأل عنه . وقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام . ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له وقدمناه على غيره .

وسمع خالد هذا فاتجه الى المدينة فلما سئل في ذلك قال : لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر . وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه .

ومنذ ذلك اليوم فتح له في التاريخ باب من الخلود لم يفتح لمثله من قبل . فقد اتبع له الظفر في كل معركة حتى أطلق الرسول عليه عبارته الخالدة « سيف من سيوف الاسلام » . ولم يلبث أن أخذ مكانه سريعا في الصفوف الاولى . وعندما فتحت مكة كان أحد الثلاثة الذين سيطروا على الكتاب : سعد بن عبادة ، والزبير بن العوام ، وخالد

واشترك في حياة الرسول في غزوتي : مؤتة وحنين . ولكن بطولته وعبقريته الفذة لم تبرز بصورة مثالقه الا في معارك الردة .

ولا شك أن انتصاراته في شبه الجزيرة في حروب الردة كانت بعيدة الأثر في استقرار الاسلام وثبات قوائمه بعد أن كادت تزعزعه دعوات المتنبيين . واندفع الى العراق فمضى زاحفا حتى ضرب دولة الأكاسرة في الحيرة . وصلى صلاة الفتح ثمانى ركعات ، بتسليمة واحدة وفي الشام بلغ قمة الظفر بمعركة اليرموك حيث هدم ركن دولة الرومان وصدها الى ما وراء الحدود وأتم النصر في « قنسرين » .

وبذلك سجل خالد في تاريخ الاسلام صفحات غراء بعيدة الأثر في كيان الامبراطورية الاسلامية وعظمتها .

وكانما كان ذلك ايذانا بانتهاء مهمته . فقد بلغ غاية الشهرة . وتحدث الناس عنه كأنه آله في الحرب لا يهزم . وكانما خشى عمر أن يفتتن الناس به فيعجزوا عن الحرب اذا لم يكن على رأسهم خالد . فقال في عزلة : ان الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .

وكان عزل خالد هو أول أمر أصدره عمر عندما ولى الخلافة ، فاما بلغ أبا عبيدة الأمر بتوليته قيادة الجيش وعزل خالد . استحيا « أمين الأمة » أن يقرأ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق . ولقد استقبله خالد راضيا ، وحارب تحت أمرة أبى عبيدة جنديا . ولم تتأثر نفسه أو يحفظه هذا التصرف على عمر بل قبله ومضى يجالذ أعداء الاسلام في نفس الصرامة والايمان الذي يملأ نفسه .

فاذا عدنا الى حياة خالد الخاصة وجدناه انسانا طموحا يصل من الرجولة الى ذروتها . فهو يحارب مستميتا . فاذا انتهت الحرب أحب الحياة الناعمة وبهجتها .

ولقد أثر عنه كثرة الزواج والاعراس . حتى تكاد تجتمع في نفسه لذة النصر ولذة العرس . وليس عليه في هذا ضير فهو فارس كامل.

الرجولة حاد العاطفة ، تزوج في وادي الوبر بنت مجاعة ، وتزوج في دومة الجندل ابنة الجودي ، وتزوج في ميدان القتال في حرب اليمامة .

وتعرض للمؤاخذه من ابي بكر وعمر لزوجاه من امرأة مالك بن نويرة بعد قتله . ودعاه الخليفة أبو بكر لمناقشته . فقدم وعليه قباء عليه صدا الحديد معتجرا بعمامة له قد غرس فيها أسهما فلما أن دخل المسجد قام اليه عمر فانتزع الاسهم من رأسه فحطمها . وقال له : قتلت امرأة مسلما ثم نزوت على امراته . والله لأرجمنك بأحجارك . وخالد لا يكلمه . فلما دخل على ابي بكر واعتذر له قبل عذره .

ولقد كانت لخالد عمامة قيل أن الرسول خلق رأسه في إحدى عمراته فاستبق الناس الى شعره فسبق خالد الى ناصيته فأخذها واتخذ منها قلنسوة وتبرك بها في حروبه . وفي مؤتة كسرت في يده سبعة أسياف فما ثبتت في يده الا صحيفة يمانية .

ولقد تحقق لخالد أن يهزم ثلاثة من كبار محاربي الردة : مسيلمة الكذاب في اليمامة . وطلحة بن خويلد مدعي النبوة . ومالك بن نويرة . وتوجه الى اطراف العراق ومعه المثني بن حارثة الشيباني . وانتصر على الفرس واستولى على الحيرة والانبار . ثم الى جموع المسلمين باليرموك .

وكان مسير خالد من العراق الى الشام مفامرة خطيرة لا يقوم بها الا قائد قوى العزيمة . لم يقبل خالد اجتياز الصحراء من عين التمر الى شمال الشام مع قصر هذا الطريق مخافة القبائل الموالية للروم . لذلك قال لاصحابه « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم . فاني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . واجابوه : لاتعرف الا طريقا لا يحمل الجيوش وانما يأخذه الفذ الراكب وعزم خالد سلوك هذا الطريق . وقال : ان المعونة تأتي على قدر النية والاجر على قدر الحسبة .

وبعث فجاء برافع بن عميرة الطائي . فقال له : انطلق بالناس . قال رافع : انك لن تطيق ذلك بالخيل والانفال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . انها لخمسة ليال لا يصاب فيها ماء . وحدثني اليه خالد وقال : لا بد والله من ذلك . فمر بأمرك . وكان رافع قد سمع حديث خالد لاصحابه ورأى اقرارهم اياه . وايقن انه لا مفر من نفاذ أمره . فقال : استكثروا اذن من الماء . من استطاع أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل . فانها الممالك الا ما دفع الله . وطلب الى خالد ان يجيئوه بما استطاعوا من ابل سمان . فلما جاءوه بها عمد اليها فظلمها . حتى اذا أجهدها عطشا أوردها الماء عللا بعد نهل . فلما امتلات صر آذانها . وشد مشافرها لئلا تجتر . وانطلق خالد بالجيوش وقضوا خمسة أيام يسيرون في وحشة الصحراء ووحدها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم . ينزلون في كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء . ثم يشقون بطون عدد من هذه الابل . فلما كان اليوم الخامس وصل الركب الى غاية الطريق وأدرك خالد وجنوده الري .

وبدا خالد عمله في جبهة الشام : لقد قال أبو بكر عندما لقيه ،  
والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . .

ثم لم يلبث عمر أن ولي الخلافة فعزله عن القيّادة . ثم عزله بعد  
أذلك عن العمل الحربي عامة عندما علم أنه أجاز الأشعث بن قيس بعد  
أن مدحه بعشرة آلاف درهم . وقد حاسبه عمر بعد أن أمر بأن يعقل  
بعمامته ويسأل عما إذا كان قد أجاز الأشعث من ماله أم من مال  
المسلمين . وقد حوسب في المسجد الجامع واعترف بأنه أجازره من ماله  
واستقدمه عمر الى المدينة واقتسم معه ماله حتى نعلاه .

وعاد خالد الى حمص فبقى فيها مابقي من حياته ، امدا لا يقل  
من أربع سنوات ومات وهو في سن الخامسة والخمسين . ولم يوجد  
في بيته عند موته غير فرسه وسلاحه : وقفه للجهاد . فلما علم عمر  
بذلك قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ماظنناه به . والله لقد  
كان سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة .

وعندما أوفى عمر على الموت : تمنى لو كان خالد حيا ليعهد اليه  
أمر الخلافة . ولا شك أن محنة عزل خالد تعطي صورة غاية في الروعة  
وهي بطولة أخرى لا تقل عن بطولته الحربية شيئا . فهو الجندى القدير  
على ضبط النفس الصابر الذي لم يذله تصرف عمر معه عن واجبه  
الحق حين لم يستطع أحد أن يفتح له باب الفتنة أو الوقعة ورضى أن  
يعيش معزولا وهو يرى ميادين القتال مفتوحة وهو بعيد عنها . لقد  
حوسب خالد وحوكم وهو في أوج النصر وعزل وهو يطوف بأحلام  
خصوم الاسلام ولكنه ظل أيامه كلها لا يذكر عمر بسوء ولا يفتح للفتنة  
بابا .

ولو ترك خالد في زحفه الرهيب وعلى رأسه قلنسوة النصر التي  
صنعها من ناصية رسول الله ، وجعلها تميمة ، لوصل الى عاصمة  
قيصر ، ولغضاها على أهلها .

✽ الشهيد الذي غلبت الفروسية فيه على السياسة .

## الحسين بن على

بعد الحسين « قمة » القصة التى بدأت قبل ان يلحق الرسول بالرفيق الأعلى . كان ذلك عندما التقى العباس وعلى فأخذا يتساءلان عما لهما فى هذا الامر من شىء . وكان العباس يرى أن يذهب الى الرسول ليوصى لهما . ورفض على ، وقضى رسول الله ، وباع الناس ابا بكر وتأخر على قليلا ثم بايع . وتتابعت الايام . ثم جاء عمر وامتد زمن حكمه . ولم يستعمل عليا ، لم يوله ولم يأذن له فى الاشتراك فى الجهاد . ثم جاء عهد عثمان . وبدأت الدولة الاسلامية تأخذ صورة جديدة فيها الغنى والثراء والترف والمال الوفير والقصور والرياش .

وهنا ظهر « أبو ذر » يدعو الى الاشتراكية الاسلامية . ويمزجها بحب آل البيت . وكانت هذه بذرة التشيع بهم . وقتل عثمان ، واختير على خليفة . وتآلب عليه الصحابة فى المدينة فخرج الى البصرة . ورفع معاوية قميص عثمان على المنبر مطالبا بدمه . وانتهى الصراع بين على ومعاوية على غير ما يحب على . فقد خدع انصاره بالتحكيم . فأوقفوا المعركة . ثم خدعوا بالحكم فيه . فاعدوا المعركة جديدة . واختلف الانتصار فى « على » نفسه . وانتهى هذا الصراع بقتل « على » ، وتفرد معاوية بالحكم .

ووقف معاوية ينظر الى ابناء على . وانتهى امر الحسن بتنازله عن حقه فى الخلافة . وادخل معاوية نظام توارث الخلافة فبايع ليزيد فى مكة بالقوة والعنف . وظل الى نهاية اجله ينظر الى الحسين على أنه عدوه اللدود . وأوصى به يزيد فيمن أوصى من شباب المسلمين وأبناء الصحابة وآل البيت .

فى هذه البيئة . وعلى هذه الصورة من صور الصراع ، واجه الحسين الحياة . كان فى سن الثلاثين عندما بدأت هذه المعركة التى كان مقتله نهايتها . وبداية معركة أخرى .

كان فى تلك السن عندما نفى « عثمان » ابا ذر الى الريزة . وأبو ذر هو النذير الاول بما وقع بعد ذلك من صراع . وعاش فى اتون الحوادث يرى عثمان وأهله وهم يذهبون فى الثراء والترف غايته ، ويرى الصراع بينه وبين الامصار . ويكون احد الواقفين على باب عثمان عندما تجهمت الاحداث وخيف قتله . ثم عاش بعد ذلك فى أيام أبيه . وذهب معه الى الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان .

ورأى كيف تغلب معاوية على أبيه بالحيلة والخدعة . ثم رأى موقف معاوية من الحسن ثم منه . كل هذا كون عنده الاحساس بالحق الطبيعي الشرعى الذى تحاول الاحداث أن تقضى عليه . فأمن بأنه لابد أن يكون واحدا من اثنين : إما «الفداء» لهذا الحق . وإما «الظفر» به .

وقد تحقق له الامل الاول فكان قتله على هذه الصورة البشعة ، وكان استشهاده على هذه الصورة الرائعة بذرة لثورة ضخمة امتدت جذورها فى المجتمع الاسلامى حتى قوضت النظام الاموى كله .

ولد «الحسين» فى السنة الرابعة للهجرة ، ونشأ فى بيئة النبوة . جده الرسول . وأمه الزهراء . وأبوه على بن أبى طالب وقد سماه الرسول باسمه . وكان يحبه ويحملة ويفرح به . ويقول لأمه ان بكاءه يؤذيني . ويدعوه بابنه ويرعاه فى حنان .

وقد روى أن النبى حمله ذات مرة واطال السجود به . فلما سئل عن سجدته الطويلة ، قال ان ابني ارتحلنى . فكرهت أن أعجله . وكان الحسين أحسن الناس فى الخلق والخلق . ونشأ وهو يسمع الى جده النبى . وأبيه البليغ القوى . وقد ورث منه حب الفروسية والبطولة كما عرف بالذكاء والشجاعة والوقار .

وقد خالف أخاه «الحسن» فى موقفه من «معاوية» وتسليمه له . وأشار بالقتال . ولذلك ظل معاوية يخافه ويهابه . وبحس بأنه صورة من «على» ووصف حلقة بقسوله «حلقة» فيها قوم كان على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتذرا الى أنصاف ساقيه .

وكان يعرف بالبلاغة والشعر ورسالة العبارة والفقه . وكان يطاوع الأعراب الشعر . ويناقلهم الادب والشذور .

وكان وفيما كثير العطف والاشفاق «إذا وصلته الهدايا بدأ بايتام من قتل مع أبيه فى صفين ، فاذا بقى شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن» .

وقد عرف فى الحرب بالشجاعة الفائقة . وله مواقف مشهودة فى أفريقيا الشمالية وطبرستان والقسطنطينية . وشهرة واسعة فى المصارعة وركوب الخيل والعدو . وعرف بالعاطفة المحبة للجمال . وبالنفس الراغبة فى الفكاهة والتبسط . وكان يضحك لفكاهات شعب . ولكن ذلك لم يصرفه عن طبيعته المتدبنة الاصيلية . فكان يصلى فيطيل السجود . وكان الى ذلك صواما قواما .

كان الحسين فى جمعه بين الفروسية والادب رمزا للرجولة الكاملة . هذا الى أنسه بالزهور والطور حتى أثر عنه أنه اعتق جارية حملت اليه ذات صباح طاقة من الريحان .

وكان الى ذلك كيسا لبقا «تغلب فيه الفروسية على السياسة» كعلى فهو يؤمن بقوته على مواجهة الخصم بحد السيف . ولكنه لا يرى مواجهته بالخديعة والمكر والدهاء .



وللحسين موقفان قبل موقفه الاخير : موقفه من معاوية حين اراد ان يبايع ليزيد في المدينة فقد عارضه في ذلك . وانكر عليه . وحاول معاوية ان يستميله فلم يصل الى ما يريد . فدخل على عائشة فشكاه وبعض الصحابة اليها . وهددهم بقتلهم ان لم يجيبوه الى بيعة يزيد . فلما اجتمع بالحسن وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر قال : فاني قد احببت ان اتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر . واني كنت اخطب فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأحمل ذلك ، واصفح . واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على احدكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع اليكم كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى راسه . فلا ييقن رجل الا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه فقال : اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين . ومع كل واحد سيف . فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما .

وعندما مات معاوية ، وولى يزيد . واريد له ان يبايع رفض ذلك في أسلوب من الحيلة حين قال لعامل يزيد : ان مثلي لا يبايع سرا فاذا خرجت الى الناس ، ودعوتهم للبيعة ، ودعوتنا معهم كان الامر واحدا . ثم قصد مكة . وقد ظل الحسن وفيما لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن الذي عاهده على المسألة ورفض ان يستمع لأصحابه الذين حرضوه على خلع معاوية .

وبعد : فسيظل الحسين علما على قصة « الاستشهاد » في تاريخ الاسلام كله فما من شهيد الا وهو صورة من الاسوة الصادقة التي رسمها الحسين . اسوة الاستشهاد في سبيل الايمان بالحق دون مبالاة لاية عاقبة من العواقب التي يبايها الساسة وأصحاب المناورات .

لقد مات الحسين في سبيل الفكرة . في سبيل الحق الذي اعتقد . فقد كان أحق الناس بالخلافة ، بعد ما كادت معالمها تنهار على يد القائم بها والمحيطين به .

ولقد احس الناس في الامصار انه اهل لها ، فدعوه . فكان لابد ان يلبي دعوة الرأي العام . وان يؤدي حق الاسلام المنوط به . كالمعرج في الدولة الاسلامية اذ ذاك .

غير ان الاقدار ارادت غير ما اراد الناس . وغير ما اراد الحسين . وتغلب السلطان الظالم على الحق الزاحف الذي قضى عليه قبل ان يصل الى مداه .

وفكر الحسين وتروى . والناس يسألونه الاسراع اليهم . وهو يكثر المشاورة ويطلب الخاوة الى ابن الزبير وابن عباس . ثم رأى ان عليه ان ينهض لدفع الظلم . واراد ان يستوثق فأرسل رسولا من اصدق رجاله يخبر الناس بأمره . ويخبره بأمرهم فبعث مع الوافدين : ابن عمه مسلم بن عقيل . واتي مسلم الكوفة . واخذ بيعة الناس وعهودهم وايمانهم للحسين .

وكان من اتباعه نحو من عشرين الفا من وجوه الناس وأعيانهم

ونحو مائة ألف من المقاتلين والقادرين على الجهاد وكتب بذلك للحسين .  
فنهض بآله وقومه يريد الكوفة . وكان اذ ذاك في سن السابعة والخمسين ،  
غير ان الموقف تحول في خلال فترة سفر الحسين . لقد قطع الصحراء  
من مكة الى الكوفة في شهر كامل كانت الاحداث قد غيرت كل شيء فقتل  
مسلم بن عقيل وتفرق اعوانه وسيطر عبيد الله بن زياد على الموقف  
فسجن من سجن وقتل من قتل وأرسل رأس عقيل الى زياد في  
دمشق ..

ومهما يكن القول في ان الخطة لم تكن مرسومة على وجه دقيق  
او ان الانصار لم يكونوا على عهد استعداد وتضحية . او ان القوى لم  
تكن قد هيئت لحماية الامام الجديد ، فذلك كله لا يغنى عن أن الحسين  
قد دعى ، بوصفه أحق أهل عصره بأمر الناس ، وأن الناس (وهم الأمة)  
هم الذين دعوه . وهم المرجع في أمر الحاكم الصالح . وانه استجاب  
ثقة بنفسه وغيره على حقوق الله وتلبية لرجاء الناس .

فلما وصل الى مكانه الموعود كان الامر قد تطور او تحول على غير  
ما يبتغى . فواجه الموقف في رجولة واستبسال . واستشهد وهو يدافع  
عن نفسه وعرضه والحق الذي يؤمن به .

وقتل الحسين بيد العصابة الفادرة . وقتل بعض أهل بيته وحمل  
البعض الآخر الى الشام . ولكن مقتله الرهيب ظل أحدوة الدنيا ،  
وكان له أبعد الأثر في أصحابه الذين تفرقوا عنه ولم ينصروه .

وبات الحسين الليلة الأخيرة وهو يعرف ان خصومه قد اعدوا  
عدتهم لسحقه والخلاص منه فأذن لأصحابه أن يتفرقوا تحت جنح  
الظلام . وتلك غاية الخلق ، ولكنهم أبوا الا أن يموتوا دونه .

وكان قد خرج في الثامن من ذى الحجة على أثر عزمه وتصميمه .  
لم يكن يعلم أن مسلم بن عقيل رسوله الى أهل الكوفة قد قتل يوم  
وصوله . ولم يستمع الى رأى عبد الله بن عباس الذي أظهر له تخوفه  
من هذا الوجه وقال له : ان أهل العراق قوم غدر . وخير لك أن تقيم  
فأنت سيد أهل الحجاز ، وان أبيت فسر الى اليمن فان لابيک بها  
شيعة ..

ولكن الحسين أصر . كأنما يريد القدر المرصود الذي لا مفر منه .  
أراد أن يصل الى الحق المنكور . أو يكون الدم الذي يكتب صفحة  
الفداء . قدم نفسه ضحية ، فكان مداد معارك ، ووقود افكار ، ولهب  
نيران تأججت فلم تخب الا بعد أن أتت على دولة أمية وقوضت بنيانها .

ظهر التوايبن بعد استشهاده فأخذوا بثأره ونكلوا بمن قتله .  
وامتدت ثارات الحسين الى قواعد الظلم فأخذت تحطمها واحدة بعد  
أخرى .

✽ انى لم احذرکم امرا انا عنه بنجوة . وانما ابدأ بنفسى .

## طارق بن زياد

تاريخ قصير لشخصية ضخمة . لا يزيد في كتب التاريخ عن موقعة في فتح الاندلس ثم يصمت التاريخ بعد ذلك فلا يقول لنا اين ذهب طارق وكيف مضى مع الحياة أو مضت به .

انه واحد من شباب شمال افريقية ، وابناء هذه المنطقة الحية . من ابنائها الاصليين « البربر » نشأ وشب فتطلع الى غزوات العرب لبلاده باسم الاسلام فاتجه بطبيعته الى العمل . وكان موسى بن نصير قد ورد افريقية سنة ثمان وسبعين واليا . وهو الذى اكتشف طارقا فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ طنجة وهى قبة المغرب فاقتضاها واخطت القيروان .

ثم سار موسى يريد مدائن شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس . وكانت وجهته «سبتة» هنالك بدأت قصة الاندلس على الصورة التى رسمتها كتب التاريخ .

لذريق والى الاندلس يسىء الى يليان فيبعث يليان الى موسى بالطاعة . وهو الذى دعاه الى فتح الاندلس . وموسى يبدأ بالسرايا فيرسل طريقا الذى اغار على الجزيرة واصاب منها مالا جسيما . هنالك اختار موسى طارقا الذى تصفه كتب التاريخ بأنه فارس « همداني » في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر . هنالك واجه طارق مائة ألف قادهم الملك لمقاومته وزاد موسى لطارق رجاله خمسة آلاف ، وعبر طارق ، واقتحم جيوش الاندلس فانتصر ومضى الى غاية الشوط . ثم لحق به موسى الذى دخل الاندلس غازيا من طرف آخر . وتحقق للعرب السيادة على الاندلس في فترة قصيرة . وكان ذلك عام ثلاث وتسعين هجرية .

هنالك تتوقف قصة طارق : هذا الفتى المنسوب الى قبيلة نفرة البربرية التى اسلمت . والتى كان طارق احب فتياتها الى قلب موسى ابن نصير لما عرف عنه من شهامة وبطولة وحماسة ، روت كتب التاريخ فصولها في معارك فتح الاندلس والذى كان قد ولاه موسى حاكما على طنجة ثم دفعه الى حرب المملكة القوطية وسحقها .

لقد استطاع طارق أن يواجه بجيشه القليل هذا العدد الضخم من جيش القوط . ومع ذلك انتصر على الرغم من أنه يقتحم بلادا

جديدة وغريبة عنه فضلا عن أن منطقة وادي لكة التي دارت فيها المعركة الكبرى الاولى منطقة وعرة المسالك معظمها هضاب وجبال وتلال متصلة. وقد التحم الجيشان في معركة استمرت سبعة أيام بذل فيها طارق ورجاله صنوفا من البطولة والكفاية والجلد وانتهت بالنصر المبين لطارق وجيشه وهزيمة القوط واندحارهم وتراجعهم امام الزحف حتى غرق ملكهم «لذريق» في النهر .

واندفع طارق في الفتح قويا قد امدته النصر بعزيمة صادقة في نفس الوقت الذي ملأ قلوب اعدائه الرعب ففرقوا ، واتجه الى طليطلة عاصمة القوط فاستولى عليها ثم تابع زحفه شمالا .

هناك تبين موسى ان الامر في غاية الخطر والاهمية . فأرسل الى طارق يطلب اليه التوقف وعبر هو بجيش آخر وافتتح عدة مدن وفي مقدمتها اشبيلية والتقى قرب طليطلة . ولعل موسى قد اساء الى طارق وزجه في السجن ثم عفا عنه . ومضيا معا يشتركان في انمام فتح شبه الجزيرة . وما ان انما الفتح حتى دعا الوليد موسى وطارقا الى العودة الى دمشق فعادا ، حيث توفي الوليد وخلفه سليمان الذي لقي موسى على يديه كثيرا من المتاعب .

اما طارق فقد اتجه راي الوليد الى توليته حكم الاندلس ، غير انه انصرف عن ذلك عندما علم مدى ما يتمتع به من هيبة ونفوذ خشى معهما ان يستقل طارق بهذا الاقليم .

وتسترعى نظري في شخصية طارق هذه العزيمة التي وصفت بأنه احرق المراكب بعد ان جاز المضيق ووقف بين جنده يقول : ابن المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر .

ومهما يكن من مدى صحة هذه القصة ، فانها تعطى صورة لعزيمة طارق الجبارة . هذا البربري - ولا أقول الاسود فلم يكن البرابرة سودا - الذي فتحت له أبواب المجد حين وكل اليه موسى أمر الجيش الذي جهزه من العرب والبربر في بضعة آلاف من المقاتلين . ووقف على الأرض الجديدة وقد شغفه أن يخترقها ، وأن يكتب للإسلام فيها صفحات من صفحات المجد والنصر . فدفع جنوده واندفع معهم يقاتل في قوة على نحو الصورة التي نسبت اليه « أني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة . ولا أحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . وانما ابدا بنفسى . واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله ان شاء الله فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه » . هذه المعاني ايا كان مدى صدق روايتها فانها تدل على نفسية طارق وتعطى صورة عنه وعن أسلوبه في الحرب . فهو يؤمن بأنه لا بد من سحق قائد العدو أولا . فاذا تحقق له ذلك فقد انقضى الامر . وقد فعل طارق هذا ، ونجح وتوغل . ومضى يفتح البلاد في قوة حتى أوقفه موسى فلم يتوقف . وكيف يقف في مثل هذا الموقف الخطير ؟

ولقد أثبت طارق بطولة فذة ، فقد استطاع ان يشق طريقه الى قلب هذه القارة الجديدة في قوة . وأن يجاهد جهادا ضخما في سبيل اكتساب أرض جديدة . ولم يكتف طارق بقواته في أثناء زحفه بل طلب مددا جديدا وكانت معارك ضخمة بلغت قوات العدو فيها الوفا مضاعفة . قابها طارق بجنوده الاثنى عشر الفا ، ومع ذلك فقد انتصر .

وتبدو أمامي صورة طارق هذا المسلم الفاتح الذي عبر من افريقيا والذي عاشت في أعماقه صورة الفتوح الاسلامية وهي تراوح المغرب وتعاوده حتى استقرت فيه وصنعت هذا الصنف الحازم الحاسم ذا الشكيمة من البرابرة الذين كانوا من اصلب الناس واشدهم تعصبا لما يؤمنون به .

ولم يعرف عن طارق أكثر من أنه محارب معصوم من الشهوات والمطامع الفردية . لم تفره مظاهر الحياة البراقة في الاندلس . ولم تفتنه صور الجمال . فقد دخل الاندلس على اثر قصة اغتصاب لذريق ابنة الكونت يوليان حاكم سبتة « الحسناء فلوريدا » ولكن هذا لم يكن في حسابه مطلقا . فقد مضى يفتح بقوة . وجعل نفسه في مقدمة جنوده . وأحب أن يموت في سبيل كسب النصر .

وتم الفتح .. وعاد طارق الى دمشق ..

ثم توقف تاريخه عند هذا الحد فلم يسجل له شيئا .

ماذا كان مصيره بعد الفتح ؟ كيف عاش ؟ كيف مات ؟ هذا ما لم تسجله صحف التاريخ وان روى أنه توفي عام ١٠٢ هـ .

✽ المجاهد الذي لا ينصرف عن الصين حتى يأسر ملوكها ويظا أرضها  
ويأخذ الجزية .

## قَتِيبَةُ بَنِ سَم

ولاه « الحجاج » خراسان عام ٨٦ هـ . ولكنه لم يكن واليا بقدر  
ما كان محاربا بعيد الطموح راغبا في الفوز ، ملئ النفس بالأمل في الجهاد .  
وقد خرج الى بلخ فاستقبله دهاقينها وعظماءها ثم عبر النهر فقابله  
ملك الصفانيان وأهداه كثيرا من الهدايا وسلم اليه بلاده .

ثم غزا بيكند - بين بخارى وجيحون - وأغار على الصفد وقاتلهم  
قتالا شديدا فانهزموا وتفرقوا ثم طلبوا الصلح ، ولكنهم لم يلبثوا أن  
انفضوا ، فرجع اليهم قتيبة وفتح المدينة عنوة .

ثم لم يلبث أن واصل فتوحه في بلاد كرمينية ( بين سمرقند  
وبخارى ) ثم سار الى بخارى فافتضاها على من فيها .

ثم اتجه الى مدائن خوارزم فاستسلمت له . ثم غزا سمرقند  
ففتحها بعد قتال شديد . وعاد الى فرغانه وسار حتى بلغ ( خجنده )  
على نهر سيحون فاشتبك مع أهلها في حرب طاحنة انتهت بانتصاره .  
ثم اتجه الى كاشان ففتحها .

وقد تم له ذلك في خلال سبع سنوات استطاع خلالها أن يوغل  
في اقليم ما وراء النهر غير أنه في عام ٩٦ بدا يتجه الى حدود الصين  
على رأس جيش كثيف .

ولما وصل قتيبة الى سمرقند وجد كثيرا من الاصنام فأحرقها  
وكان أصحابها يعتقدون أن من يمسه أو يعتدى عليها يموت لساعته ،  
وقد اعتنق الاسلام كثير من عبيدها .

ان قتيبة هو أحد هذه المنارات السامقة في تاريخ نهضة العرب  
وعظمة الاسلام . هؤلاء الذين كان كل منهم علامة على مرحلة من مراحل  
الطريق الطويل في سبيل المجد وعنوان صفحة من صفحات المجد الاثيل .

واذا كان عقبة بن نافع قد اندفع في قلب افريقيا حتى وصل  
المحيط ودفع حوافر فرسه في الماء . واذا كان محمد الفاتح قد فض  
القسطنطينية ، واذا كان طارق قد عبر البحر وأحرق مراكبه ، فان  
قتيبة بن مسلم بلغ غاية ما بلغ فاتح . وصل الى الصين .

وكما يقف خالد وصلاح الدين وسعد بن أبي وقاص والظاهر

بيبرس ، يقف كل منهم على رأس طريق . كذلك يقف قتيبة على رأس الطريق الضخم : طريق العربي المغامر الذي اندفع من مزارع الزيتون في الشام حتى وصل حدود الصين . فوطأ أرضها وقهر ملوكها وحمل منها الجزية الى خليفة المسلمين .

ولولا أنه من المجاهدين الذين وهبوا أنفسهم للفداء لما اندفع مؤمنا بالظفر أو الشهادة . ولما قطع هذا الطريق الطويل يفتح المدن ويفض الحصون ويزلزل القلوب ويدل الأعداء .

وقد وقع له هذا كله قبل أن ينتهى القرن الاول الهجرى ، وفي خلال الصراع بين الخلفاء وفي الفترة التى استحر فيها الخلاف حول الحكم والسلطان . لم يحل هذا بينه وبين الاندفاع فى الأرض لرفع راية الاسلام .

كانت أمنية الجهاد تملأ روحه ، فما ان ولاه الحجاج خراسان حتى بدأ يتطلع الى الفتوح فخرج الى بلخ ثم بدأ اغاراته . والجيشون نفر من وجهه والملوك تخرج لاستقباله والبلاد تفتح صدرها له . فاذا اعجزه شيء دفع بقواته فانتصر وكله ثقة فى قوته وايمانه .

وظل يقطع الطريق فى قلب آسيا متجها الى الصين . وبعث اليه خليفة المسلمين يشجعه على المضي فى طريقه ويحثه لرفع اعلام الاسلام فى كل مكان يحل فيه : « انتم مفازيك وانتظر ثواب الله » .

فسار الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . فلما علم بوفاة الوليد بن عبد الملك لم يتراجع ، بل واصل طريقه حتى اقترب من الصين . هنالك أرسل الى ملكها وفدا برئاسة هيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينه وبين مندوبى الصين مراسلات قال ملك الصين موجهها كلامه اليهم « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف . فانى اعرف حرصه وقلة اصحابه . والا ابعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هيرة : كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الثريتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزالك ؟ واما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه » فأجابته ملك الصين « فما الذى يرضى صاحبك ؟ »

قال هيرة « انه قد حلف الا ينصرف حتى يظأ أرضكم ويختم ملوككم وبأخذ الجزية » . فقال الملك « فانا نخرجه من يمينه . نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطوؤه ونبعث ببعض ابنائنا فيختهم . ونبعث اليه بجزية يرضاه » .

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم . ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ثم عاد الى مرو .

ولكن قتيبة كان ضحية الخلاف الحزبى فى دمشق . فقد عزله

سليمان عندما ولى الخلافة وعذبه وقتله بحجة أنه من رجال الحجاج  
ومن الذين وافقوا الوليد على عزله من ولاية العهد .

ولكن اسم « قتيبة » ظل خالدا في تاريخ الاسلام واعلامه . استمرت  
ولايته ثلاث عشرة سنة . وكان عظيم المكانة مرهوب الجانب . دمث  
الاخلاق . طويل الروية . قال أحد الاعاجم بعد مقتله : يامعشر العرب  
قتلتهم قتيبة ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا .

وتوفي عام ٩٦ هـ ويطلق عليه قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين  
الباهلي .



\* واحد من فرسان الاساطير \*

## عقبة بن نافع

« .. يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد الى ملك  
ذى القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك » .

قال ذلك عقبة بن نافع وهو يدفع حوافر فرسه في البحر حتى كاد  
يغمره وهو يتطلع الى المحيط باتساعه ولا نهائيته ..

كانت هذه هي اللحظة الرهيبة في حياته بعد أن عاش عمره كله  
يتطلع الى هذه اللحظة وينتظرها وهو مندفع من مصر مخترقا ليبيا  
وتونس والجزائر ومراكش .

\* \* \*

انه واحد من أولئك الفاتحين العرب الذين عاشوا في معترك  
الاحداث ، كان أبوه نافع بن القيس فاتحا ذا شأن ملحوظ . اتصل  
نسبه بعمر بن العاص الذي وجه اميرا على برقة ( ٤٢ هـ ) فلم يلبث  
أن اندفع ومعه عدد من الفرسان فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها  
حتى وصل الى موقع القيروان فأنشأها .. ( ٤٩ - ٥٥ هـ ) . ثم لم  
يلبث أن عزل من منصبه وأمر أبو المهاجر بالاساءة اليه والنيل منه وأغفاه  
آثاره . فأخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فامتلات نفس  
عقبة بالسخط ولما علم معاوية ذلك ساءه وأمر بتخيلة سيئه واشخاصه  
اليه فاتجه الى دمشق حيث لقي معاوية ثم عاد الى افريقية حيث اعتكف  
سبعة اعوام يتربص الاحداث وينتظر اليوم الذي يتحقق فيه امله فيعاود  
الفتح والفزو .

وقد تحقق له ذلك عام ٦١ هجرية بعد وفاة معاوية وولاية يزيد .

وقد وصف بالايمن والصبر فقد اعتزل طويلا حتى تحول على  
مدى الايام الى شخصية حربية صوفية لا تهدف الى غير الجهاد في  
سبيل الله .

وما أن ولي مرة أخرى حتى عاد الى القيروان يصلحها ويجدد  
بناؤها ويكمل تشييدها ولم يلبث أن اتجه الى الفزو فمضى الى السوس  
الادنى ( خلف طنجة ) ثم أفضى الى الزاب ورحل الى تاهرت وانحدر  
الى السهل الساحلى حتى انتهى الى طنجة . واجتاز الممر الضيق  
المحصور بين هضبة الريف وجبال الاطلس الوسطى حيث جنب نفسه  
مشقة المرور بالساحل الملى بالمداخن الحصينة وظل منطلقا حتى وصل

الى السوس الاقصى فقاتل جمعا عظيما من البربر وسبى منها سبيا كبيرا وسار حتى بلغ البحر المحيط . وبهذا يكون عقبة بن نافع قد سار في السهل الساحلي الشمالي ثم اتجه شمالا حتى أشرف على البحر الابيض ثم لم يلبث أن أشرف على المحيط الاطلسي بجنوده . وأوقف فرسه في مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم عاد بعد ذلك أدراجه الى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها !ثرا يذكر .

وقد ظلت شخصية عقبة بعيدة الاثر في أهل هذه النواحي وعاشت ذكراه عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير .

### \*\*\*

ان شخصية عقبة بن نافع تعطى صورة فرسان الاساطير . في اندفاعه نحو الفتح . وفي ايمانه بالجهاد ، فقد صمم على اكتساح افريقية حتى يصل الى المحيط الاطلسي . وظلت الامنية في نفسه فكرة تتجدد على مر السنين منذ وطئت أقدامه أرض المغرب في عهد عمرو بن العاص ولكنه ما كاد يتأهب للخروج الى الغزو حتى عزله أبو المهاجر فبقى سبع سنوات في المغرب ينتظر الفرصة المواتية .

وكانت هذه السنوات قد أتاحت له فرصة واسعة للدرس والبحث ومكنته من تكوين فكرة واضحة عن البلاد بعد أن اتصل بأهلها وعرف أخلاقهم وتنقل بين ربوع البلاد ودرس مسالكها .

وقد كان عقبة محببا للفتح . يصرف قلبه الى الجهاد ويكاد يقف نفسه على الغزو حتى انه انصرف عن الفتنة السياسية التي ألت بالمسلمين عشر سنين ولم يجعل في نفسه غاية أعظم من الفتح والوصول الى ساحل المحيط .

وأضاف عقبة الى ايمانه هذا وطبيعته الدينية المتجردة فهم الاساليب الحربية ودروب البلاد وأماكن الغزو . واستطاع أن يصل الى قواعد ثابتة في هذا الاتجاه في مقدمتها بناء مدينة للجند يسكنونها ويتحركون منها الى الفتح ثم يعودون . والتوغل في البلاد . وغزو البربر دون الاكتفاء بغزو مدن الساحل ونهبها والعودة بالغنيمة . ولذلك فانه ما كاد يل امر الفتح حتى اتجه الى بناء القيروان ، واسكانها للجند وفتح بعض واحات الصحراء .

ويعطى هذا صورة الرجل البناء الذي يرسم خطة الاستقرار . ومضى في عشرة آلاف من المجاهدين يزحف وجموع البربر ترده ولكنه استطاع أن يخترق الصحراء ويدك الحصون والقلاع .

لقد آمن عقبة بالنصر وقد تحقق له أن يقف على شاطئ طنجة في تجاه اسبانيا ويقول كلمته الخالدة .

وعاد عقبة وقد ارتاحت نفسه ، وامتلأ قلبه بشعور جيش بالغبطة على أن أتم الله له نعمة ارتياد المغرب كله غازيا في سبيل الله .

وهكذا تتجلى شخصية عقبة المؤمنة بالجهاد الذى وهب نفسه للحظة  
الخالدة والغاية العليا .

وقد أخذ عليه أنه لم يكن يرسم خطة حربية منظمة . وأنه كان  
يندفع فى طريقه لا يهدف الا الى جهاد يحارب فيه الروم ويستولى على ما  
ييدهم من أرض ، ويسحق جموعهم . ولكنه لم يكن يترك حاميات كافية  
فى البلاد المفتوحة . ولذلك كانت لا تلبث أن تنتفض مرة أخرى . وأخذ  
عليه أنه انتقم من أبى المهاجر وحمله معه فى أسفاره مقيدا بالحديد انتقاما  
منه وزيادة فى تعذيبه .

وقد كان أولى به وهو الرجل الذى وهب نفسه لله أن يرتفع عن  
الانتقام . ويعطينا عقبة بن نافع صورة المجاهد لا صورة الفاتح . المجاهد  
الذى ألقى إليه الظروف أن يصل الى إفريقيا فيعيش فيها ويتمنى أن  
يقطعها بالعرض فيتحقق له ذلك ويصل الى المحيط . ويشعر عندئذ أنه  
أعذر الى الله فى التوقف عن الفتح حيث حال دونه العباب الضخم الذى  
لا تصل العين الى نهايته .

وقد تحققت له الشهادة فانه لقي قوما من الافرنج فى عودته وكان  
فى عدد قليل من جنوده فأطبقوا عليه فجالدهم حتى استشهد .

\* لكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . \*

## أبو عبيدة بن الجراح

( عامر بن عبد الله )

روى ان عمر حين دخل الشام قال لأبي عبيدة : اذهب بنا الى منزلك . قال ما تريد أن تعصر عينك على . قالوا : فدخل منزله فلم ير شيئا . قال : أين متاعك ؟ لا أرى الا لبدة وصحفة وشنا . وأنت أمير . عندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة فاخذ منها كسيرا فبكى عمر . فقال له أبو عبيدة : لقد قلت لك : انك ستعصر عينك على بكفيك . ما بلغك المقليل .

قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

وقد وصفه الرسول بقوله : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . وقد كان واحدا من خمسة عشر أحاطوا بالرسول وفوه بأنفسهم يوم العدوان في أحد . ثم لم يلبث أن يدرك الى الرسول فاخذ ثنية حلقة المغفر فنزعها بعد أن عاجلها مرارا وسقطت على الأرض فسقطت .

وقد كان أبو عبيدة طويلا نحيفا معروقا الوجه خفيف اللحية أهتم وكان يصبح لحيته بالحناء والكتم .

قال عمر : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاما وأثبتها جنانا . أن حدثوك لم يكذبوك وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة .

لما ولي عمر الخلافة عزل خالدا عن إمارة الجيش وولى أبا عبيدة وبعث له ، فكتب أبو عبيدة الخير عن خالد عشرين ليلة . فقد كان خالد يقود معركة دمشق وآثر أبو عبيدة أن يخفى عنه حتى يتم الفتح . حتى علم منه خالد بالامر فاتجه اليه وفاتحه فيه . وقال له : يفتقر الله لك . جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى . وأنت تصلى خلقى والسلطان سلطانك : قال أبو عبيدة : ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل وإن ما ترى سيصير الى زوال . وعندما بعثه الرسول مع عمر بن الخطاب فى غزوة السلاسل . نجاه عمر عن الصلاة وهو الامير . فقال له : ان رسول الله أوصى أن نتطاولع فوالله لان عصيتنى لأطيعنك .

وعندما فشا طاعون عمواس فى الجنود فى الشام أراد عمر أن .

يستقدمه معه فبعث اليه يقول : انه قد عرضت لى اليك حاجة أريد أن  
أشأفك فيها فعزمت عليك اذا نظرت فى هذا الكتاب ألا تضعه من يدك  
حتى تقبل الى .

ونظر أبو عبيدة فى الكتاب وابتسم وقال : ان أمير المؤمنين يريد أن  
يستبقى ما ليس بباقي . ولم يلبث أن كتب له :

يا أمير المؤمنين انى قد عرفت حاجتك الى وانى فى جند من المسلمين  
لا أجد بنفسى رغبة عنهم . فلن أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم  
أمره . فحللتنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى .

ولما أحس بدنو أجله : قال اقرئوا أمير المؤمنين السلام وأعلموه  
بأنه لم يبق من أمانتى شيء الا وقد قيمت وأديته .

هذه ملامح من صورة « أبى عبيدة » تعطى مفتاح شخصيته .

وليس أروع تصويرا لشخصيته من عبارة رسول الله عندما قدم  
وفد نجران على النبى . قالوا : يا محمد ابعت لنا من يأخذ الحق ويعطينا

قال : والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين . ورددها  
ثلاثا . ثم قال : قم يا أبا عبيدة . ان لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة  
هكذا كان الرسول يصور أبا عبيدة ويضعه بين أصحابه .

روى أبو بكر الصديق . قال : خرج رسول الله ونحن نتحدث  
فسكتنا . فظننا أننا فى شيء كرهنا أن نسمعه . فسكت ساعة لا يتكلم .  
ثم قال : ما من أصحابى الا وقد كنت قائلا فيه لا بد : الا أبا عبيدة .

وتاريخ أبى عبيدة فى الاسلام يعطى صورة رائعة لهذا الرجل الذى  
كان موضع ثقة رسول الله وتقديره . فقد كان من صفوة المهاجرين الى  
المدينة والذين اشتركوا فى بدر وأحد . وحمل راية الرسول يوم فتح  
مكة . وثالث ثلاثة يوم السقيفة . وهو الذى قتل أباه يوم بدر حيث كان  
فى صفوف المشركين اذ تصدى عبد الله الجراح لابنه أبى عبيدة . فأعرض  
عنه أبو عبيدة . فتصدى له بعد ذلك مرات واندفع فى الرابعة يضربه  
بالسيف . فقتل أبو عبيدة أباه . وكان هذا أروع صور الايمان بالدين  
الجديد أن يقتل الابن أباه فى سبيل العقيدة . وقد نزلت الآية « لا تجد  
قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . ولو كانوا  
آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الايمان  
وأيدهم بروح منه » .

وثبت « أبو عبيدة » حول النبى فى أحد . فقاتل عن يمينه وعن  
شماله . ويوم السقيفة قدمه عمر بن الخطاب وقال له : امدد يدك بأبيك  
فأنت على رسول الله أمين هذه الأمة .

فانبرى له يقول : أتبايعنى وفيكم ثابى اثنين ؟ أتبايعنى وفيكم  
«الصديق ؟»

فلما تكلم مدح الانصار وذكر فضلهم . فلانت نفوسهم وكان ذلك  
عاملا من عوامل كسب الموقف .

ولما فتح حمص أخذ أهلها بالرافة والرحمة . فلما جلا عنها أعاد  
إلى أهلها الحرية . وقال يا أهل حمص : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع  
عنكم فأنتم على أمركم ولا حاجة لنا في أموالكم .

ولما ولي أبو بكر خالدا قتال العدو : قال لأبي عبيدة : قد وليت  
خالدا قتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فاني وليته عليك .  
وأنا أعلم أنك خير منه . ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك .

فلما توفي أبو بكر أعاده عمر وولاه القيادة العامة وعزل خالدا عنها  
وأقام أبو عبيدة في الشام يؤسس الحياة ويبني المجتمع ويضع روحه  
القوية في الانشاء . وله من طابعه النفسي في الزهد والتقشف والترفع  
عن الدنيا ما يوجهه إلى الخير . وقد ظل بين جنده الذي يحبه حتى جاء  
طاعون عمواس . وبدأ يتفشى في الجند وعلم عمر بالامر فأراد أن يحتال  
ليرده إلى الحجاز فتنبه لرغبة عمر واعتذر عنها .

وجاء عمر يزوره ويطلب إليه أن يعود معه فروى له حديث رسول  
الله عن الوباء . وانه اذا كان في أرض فلا تدخلوها . ولا تخرجوا منها  
اذا كنتم بها . وعاد عمر وهو يبكي ويودعه الوداع الاخير . فلما مات لم  
يجدوا انه يملك من حطام الدنيا غير ترسه ودابته وسيفه وكان يردد  
دائما حين يسأل عما لو اتخذ متاعا . بأن ذلك سيبلغه الفاية .

ولما أدركت الوفاة عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي هتف في  
سكراته يقول : لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته ، وما شاورت . فاذ  
سألني الله عنه قلت استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

## محزون القاسم الثقفي

هذا فتى فى السابعة عشرة من عمره ملأت نفسه حماسة الايمان وحرارة اليقين وفروسية الفتح فذهب الى عمه الحجاج يطلب منه أن يوليه امر الحرب .

لقد هزته أنباء الهزيمة التى منى بها من ساروا الى ثغر الهند فقد قتل ابن نبهان وبديل . وهو يريد أن يأخذ بثار هؤلاء الفرسان البواسل . ويمضى مندفعاً الى هذا الوجه غازياً فى سبيل الله فاتحاً .

ولقد كان « محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفي » من قوم عرفوا بالدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة . وقد كان فارساً وشاعراً ، عرف برجاحة العقل والحلم واجتنب قلوب كل من عرفه وأثر عنه قوله « انصفوا الناس من أنفسكم . وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية . وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على ادائه . ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد »

وقد عقد له الحجاج وأرسل معه ٢٠ ألفاً من المقاتلين منهم ستة آلاف فارس من جند الشام فمضى بهم فى البر بينما كان الاسطول يحمل المؤن وعدد الحرب الثقيلة فى البحر محاذياً لهم وقد حمل معه خمس مجانيق ضخمة يلعب أكبرها بالعروس .

خرج ابن القاسم من شيراز عام ٩٠ هـ مشرقاً متتبعا ساحل البحر يطوى القفار يملؤه الأمل فى مجد فتح وجهاد ، واجتاز صحارى كرمان ومكران وبلغ الديبل وكان الاسطول قد لحق به . فما أن بلغها حتى خندق وركز الرماح ونشر الاعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقه الضخم « العروس » وراح يضرب الصنم الكبير الذى أقامه أهل الديبل فحطمه وكان الحرس فيها خمسمائة رجل وكان ( اليد ) العظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل سارية ضخمة عليها راية حمراء اذا هبت الريح اطافت بالمدينة وهى تدور . وكان أهل الديبل يعتقدون أن صنمهم لا يمكن لأى قوة أن تقترب منه . فما أن بدأ الصنم يتحطم حتى تحطمت معه قلوب العابدين وأحسوا بالهزيمة تملأ نفوسهم ، ولما أحس أبو القاسم بأنه على وشك النصر هاجمهم فارتدوا الى داخل الصنم .

وأصعد عليه على سلم منصوبة واحدا من رجاله الأبطال ففتح حصن الصنم . ومضى المسلمون يضربون فى خصومهم حتى هزموهم واختلط للمسلمين مجداً وبنى لهم مدينة وأنزل أربعة آلاف منهم وسار فى طريقه

مع النهر يريد « داهرا » عظيم السند وجيشه فاستولى فى طريقه على بيرون . وفتح صهبان وسلمت له سدوستان .

وعبر ابن القاسم نهر مهران حيث واجه الملك داهرا وجيشه على ظهور الفيلة ووقع صدام بين خيول العرب وفيلة الهنود . فكانت الحيور أثبت فى هذا المجال .

وما أن بدأ القتال حتى هربت الفيلة بعد أن واجهتها قذائف النفط المنتهب فهاجت وأحرقت هوادجها . وألقت من كان على ظهورها من الجند تحت سنابكها . وقتل الملك داهرا . وتمزق جيشه وتراجعت فلوله الى مدينة ( برهمناباد ) نفسها . ومن ثم زحف الى مدينة الرور فحاصرها ثم دانت له .

واستولى « محمد » على مدينة راور ثم زحف الى « الرور » فحاصرها واستولى عليها ثم قطع نهر بيامس الى « الملتان » أعظم بلدان السند العليا وهكذا أتيح لمحمد بن القاسم فى هذه السنوات الست أن يحصل على هذا النصر المؤزر .

وقد علت سنه فيبلغ الثالثة والعشرين من العمر فهابه القوم وعلت مكانته ولمع اسمه . وبدأ كأنما يكتب له المستقبل صفحة رائعة . ولكن القدر كان له بالمرصاد .

لقد قفل محمد الى الجنوب عام (٩٥) هـ مستوليا على مدن أخرى آخرها مدينة ( الكيرج ) التى استولى عليها . ثم جاءت الانباء بموت الحجاج ثم مات الوليد ابن عبد الملك الذى كان يكره الحجاج وأهله . وسرعان ما لحقه من الحجاج طرف من الأذى ولم يذكر له فضله فى الفتح والجهاد لقد كان هناك خلاف بين الحجاج وبين سليمان بن عبد الملك . ولكن ما ذنب يطل السند ، وقد كان بعيدا عن مسرح الحوادث هناك فى الفتح لرفع راية الاسلام .

وجاء الأمر بعزل ابن القاسم عن إمارة السند . وقدم الوالى الجديد: يزيد ابن أبى كبشه فأخذ ابن القاسم بعنف ، وقيده فى الأغلال ، ووضع فى الحبس والحديد فى يديه ورجليه .

ولكن أهل السند الذين أحبوا ابن القاسم تأثروا من أجله ، وبكوا عليه فقد أحبوه وأكبروا رجولته وبطولته . وكانوا أشد ما يكونون جزعا من أجل سجنه .

ولكن خصوم الحجاج أرادوا امعانا فى التنكيل أن ينقلوه الى بلده الى مدينة « واسط » . ليظل هناك سجيناً فى أصفاده . يسام العذاب كل ليل وكل صباح . وقد تلقى السجن والعذاب صابرا محتسبا وكان فى محنته شجاعا صامدا .

وانتهى الامر بأن ألصقت به تهمة أخذ بها وقتل . ويقال انه وضع فى أديم بقرة ثم خيط عليه الأديم وحمل الى دمشق ففاضت روحه .

وهكذا شهدت الهند لرجلين : الاسكندر المقدونى الذى فتحها فى القرن الرابع قبل الميلاد . ومحمد بن أبى القاسم الثقفى فى القرن الأول الهجرى .



✽ قال عبد الرحمن بن عوف أنه الأسد في برائه .

## سعد بن أبي وقاص

قال أبو المنهال : سأل عمر بن الخطاب : عمرو بن معد يكرب عن خبر سعد بن أبي وقاص . قال : متواضع في خبائه . عريبي نمرته ( كسائه ) أسد في تاموره . يعدل في القضية ويقسم بالسوية . ويبعد في السرية . ويعطف علينا عطف الأم البرة . وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

كان « سعد » من الرعيل الاول من المسلمين الذين آمنوا بالدين وصاحبوا الرسول في غزواته ومشاهدته جميعا مما استحق معه أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة ولقد وقف سعد في صف بطولة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأبي عبيدة بن الجراح فهو صاحب القادسية والمدائن وهما من أعظم مواقع الفتح الاسلامي وأبعده أثرا في تحطيم دولة فارس وسحق إحدى القوتين الضخمتين التي واجهت الاسلام وعرف منذ صباه الميكر بقوة المراس وصلابة العقيدة يغلب عقله عاطفته حتى انه عندما أسلم اختلف مع أمه التي عارضته في دينه الجديد وبلغ من أمرها أن قالت له :

يا سعد لتدعن دينك هذا ، أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت . فقال لها : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء . وكان الرسول يحبه ويقول عنه انه خاله . وهو أول من رمى بسهم في الاسلام ومن الذين دافعوا عن النبي في أحد في بطولة رائعة حتى استحق قول النبي : أرم سعد فذاك أبي وأمي .

وقد وصف بأنه صوام قوام ، صدام اذا واجه العدو ، روى الاحاديث عن الرسول . وكان من أحد الناس بصرا . رأى ذات يوم شيئا يزول فقال لمن معه ترون شيئا قالوا : نرى شيئا كالطائر . قال أرى راكبا على بعير . ثم جاء بعد قليل راكب على بعير .

ولعله مما لا يقع لقائد من قادة الجيوش أن يقود معركة ضخمة وهو منبطح على وجهه وفي صدره وسادة . يشرف على الناس في ميدان المعركة ويرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه . ولكن ذلك ما وقع لسعد في معركة « القادسية » التي انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا .

ذلك انه لما ولي عمر الخلافة وزاد الاضطراب في بلاد فارس كتب المثنى الى عمر ودعاه لغزو العراق وأخذ عمر يسأل عن يرسل . وكان

يرآود نفسه أن يخرج هو لولا رده الصحابة واختار له عبد الرحمن بن عوف : سعدا وقال حين اختاره : انه الاسد في برائه وكانت وجهته من الحجاز الى الكوفة يتسمع الاخبار ورسل عمر توافيه حتى يصل القادسية بباب العراق .

وفصل سعد عن المدينة في أربعة آلاف ثم أمده عمر بثلاثة آلاف . هنالك عرف أن المثنى قد مات من جراحه في يوم الجسر وقد ترك له وصية .

وكان عمر قد وجه سعدا وهو خارج الى الغزو في عبارات تدل على مدى فهم عمر لنفسيات رجاله : يا سعد . لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله . فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء .

ومضى سعد يقرأ وصية المثنى يدعو فيها ألا يقابل عدوه من أهل فارس اذا استجمع أمرهم . وملؤهم في عقر دارهم . وأن يقابلهم في حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب . وأدنى مدرة من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاموا الى فئة ثم أن يكونوا أعلم بسبيلهم . وأجراً على أرضهم أن يرد الله السكره عنهم .

وبعث سعد الرسل الى رستم برسائل يدعو فيها الى الاسلام او الجزية او الحرب . وكان الفرس يضحكون من نبل العرب وخيولهم العجفاء ، ويسخرون منهم .

وتزاحف الفريقان فلما عاود المرض سعدا قال احملوني وأشرفوا بي على الناس . . ثم أرسل سعد الى الناس يقول : اذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم . فاذا كبرت الثانية فتهيئوا . فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجد على الاضراس . ثم أمر من يقرأ سورة الجهاد فقرئت في كل كتيبة .

وكبر سعد ، والتقى الجيشان . ثلاثون ألفا من المسلمين يواجهون مائة وعشرين ألف راكب . ودارت رحى المعركة ثلاثة أيام . قاتل المسلمون مستبسلين في اليوم الاول حتى اذا كان صباح اليوم التالي كان القعقاع ابن عمرو يحث السير في ألف من الجند وصلوا من الشام لنجدة جيش العراق ، فلما اقترب من القادسية قسم رجاله عشر فرق . وعهد اليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها قد اختفت عن البصر . ثم سار هو على رأس الفرقة الاولى ومضت الفرق تدخل حومة المعركة متتابعة ، وكلما قدمت فرقة كبر القعقاع وكبر الناس فالقى ذلك في روع الفرس ان المدد لا حد له . وكانت الفيلة التي قدمها الفرس في اليوم الاول قد تكسرت توابيتها واختفت في اليوم الثاني ثم لم تلبث في اليوم الثالث أن عادت الى فتكها . فستأل سعد جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلتها فقالوا : انها شرافها وعيونها فأرسل الى القعقاع وعاصم ابني عمرو يقول اكفياني الفيل الابيض . وكان الفيل بازاها . وبعث الى حمالة

والريبل وكانا من بنى أسد يقول اكتفياى الفيل الاجرب . وكان بازائهما .  
وكانا أشد الفيلة ضراوة والفيلة الأخرى تتبعهما .

وترجل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل الأبيض .  
ثم ضربه القعقاع بسيفه . ثم اندفع الفيل الاجرب فالقى نفسه فى البحر .  
فتبعته الفيلة وألقت من كان يركبها وولت مدبرة .

وفى الليل وبعد أن توقف القتال أرسل سعد طليحة وعمرا فى  
جماعه من الناس يحرسان مخاضة بأسفل المعسكر خشى سعد أن ينفلت  
منها الفرس . فلما ذهبوا لم يجدوا أحدا فرغبا أن يخوضاها . ولم يلبث  
القعقاع أن كبر أربع تكبيرات وارتاع الفرس واندفع العرب وزاحفوه من  
غير أن يستأذنوا سعدا .

واطل سعد من محبسه فلما رأى القعقاع يزاحف الفرس . قال :  
اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذننى . وكان المقاتلون  
لا يتكلمون وتقدم القتال مع الليل وبات الجيشان فى المعركة ولم يفض  
لسعد جفن وهو فى مكانه منقطعاً ليس معه الا الضراعة والدعاء . ثم كشف  
الصبح عن نصر العرب . . وتسمى هذه الليلة « ليلة الهرير »

واستمرت الحرب حتى اذا كان ظهر اليوم الرابع انفرجت صلوف  
الفرس بعد أن اضطربت . وهبت ريح عاصفة أطارت طيارة « رستم »  
من سريريه فهوت فى العتيق . وزحف القعقاع الى السرير مع بعض جنوده  
فبلغوه فاندفع رستم فالقى بنفسه فى النهر فرآه هلال بن علقمة وكان  
يعرفه فاقتحم النهر وراءه . ثم خرج به وضرب جبينه بالسيف حتى  
قتله . ثم صعد فوق سريريه وهو يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة .

فلما تأكد الفرس من موت قائدهم وهرب الهرمزان تحطمت  
معنوياتهم ، فاندفعوا يعبرون النهر على الردم . ولكن الردم انهال بهم  
فسقط فى النهر منهم ثلاثون ألفا وتم النصر لسعد وصحبه .

وموقف آخر لسعد يدل على براعته الحربية فقد تقدم العرب حتى  
اذا بلغوا نهر دجلة وقفوا ينظرون فى بحر عجيب - حيث كان على الشاطئ  
الآخر « ايوان كسرى » فى ضخامته وعظمته . . وسحرهم مرأى المدائن  
أعظم السحر . وكانوا قد سمعوا عن هذا البناء الضخم الذى يقف قبالتهم  
ليس بينهم وبينه الا عبور هذه المخاضة .

ووقف سعد يفكر قليلا ثم عزم على قطع هذا البحر . وكان العرب  
لا يعرفون البحر وليس لديهم من ناقلات يعبرون عليها . هنالك دفع سعد  
ستمائة من رجاله على رأسهم عاصم بن عمرو على خيولهم الى البحر يحمون  
القراض فى كتيبة أطلق عليها كتيبة الاهوال . وكان عاصم يقول  
للمترددين : اتخافون هذه النطقة . ثم رأى الفرس وهم يتهيثون للقاء  
العرب هناك صاح فى أصحابه : الرماح الرماح . اشرعوها وتوخسوا  
العيون . وارتدت خيول الفرس أمامهم ولم تصب كتيبة الاهوال بأذى .  
ورأى سعد تحكم أصحابه فى قراض المدائن فأمر فرسانه فاندفعوا جميعا  
الوفا مؤلفة الى لجة النهر . وامتلا النهر بالخيول فلم يكن ماؤه فى هذه

الساعة ليرى • وقد وصف هذا اليوم في وقائع المسلمين بأنه معجزة إذ ساروا في النهر بخيولهم كأنما يسرون في البر • وخرج الجيش في الماء تنفض خيوله أعرافها وتسهل •

ولم يجد العرب في المدائن أحدا ونزل سعد قصر الأكاسرة • واتخذ الايوان مصلى • ووجد بالخزائن ثلاثة آلاف ألف ألف درهم •

فلما بلغت أنباء الفتح عمر قال لسعد : قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها • ولا تجعل بيني وبينهم بحرا فاخترط سعد الكوفة وعسكر جند العرب في الخيام ثم تحولت الى بيوت من القصب •

وقد جعل عمر سعدا من أصحاب الشورى الستة • ووقف موقف الحياء في أيام فتنة عثمان وزهد في الخلافة وانقطع للمعبادة • ولم ينجح معاوية في كسبه الى صفه •

وقد عاش حياته متواضعا بالرغم من ثرائه الضخم • وقد أعطته مواقف القتال حكمة وحنكة وخبرة • وعرف بالمعطف على جنوده حتى تأخلصوا له وكانوا يفتدونه •

وهكذا استطاع سعد أن يكتب لنفسه صفحة بطولة في الحرب والسلم على السواء • حيث انصرف عن مطامع الملك ونفض يده من المقام واستقام على مثل عال من السمو قل أن نجد له نظيرا •

ولما جاءت الوفاة دعا بجبة له من صوف وقال كفنوني فيها فاني كنت لقيت المشركين يوم بدر وهى على • وإنما كنت أخبئها لهذا • ومات عن ٧٢ سنة عام ٥٤ هـ •

\* واثنياء .. ولا مثني للخيال اليوم

## المثنى بن حارثة

هذا فتى من فتيان العرب وبطل من أبطال الاسلام . وعنه من اعلام الفتح بدأ جهاده في سبيل عقيدته قبل أن يكتف بالجهاد . ولكنه القلب المؤمن والروح الصادقة والنفس المتطلعة الى المجد الراغبة في رفع كلمة الاسلام واذاعتها في كل مكان . ورفعها فوق كل كلمة .

قدم على النبي في وفد من قومه في العام العاشر للهجرة . ثم عاد بعد أن أسلم ينتظر الساعة التي يتاح له فيها أن يعمل . فما أن أخذت جيوش العرب تتدافع في عهد أبي بكر لتحفظ الاسلام من الردة . حتى كان المثنى يغير على أطراف فارس وأنصارها من العرب . ولما بلغت أخبار فروسيته وانتصاراته الخليفة قال عمر . من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم : اما أنه غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا قليل العدد ولا ذليل الفارة : ذلك المثنى بن حارثة الشيباني .

وقدم المثنى على أبي بكر فقال له : يا خليفة رسول الله أبقي على قومي فإن فيهم اسلاما أقابل بهم فارس . واكفيك أهل ناحيتي من العدو وعاهد المثنى الخليفة الاول على أن يكفيه أهل ناحيته من العدو فقبل منه أبو بكر .

وعاد المثنى فكانت له صلوات حققت له الظفر وسمعت له العرب فأطاعوا وأذل الله المشركين . عندئذ بعث يطلب من أبي بكر مدداً فارسل له . خالد بن الوليد ، قائداً عاماً ليضم المثنى اليه . ولم يزعم المثنى ذلك أو يضعف من إيمانه وحماسه وقوة عارضته بل عمل مع خالد وشارك في جميع وقائعه .

ورلى قيادة الجناحين في كل المواقع التي قام بها الجيش الاسلامي في العراق فقد نزل خالد في النجاف ( قرب البصرة ) وأرسل الى المثنى يأتيه . وكان مع خالد عشرة آلاف ومع المثنى ثمانية آلاف وقد اشتركا معا في موقعة ذات السلاسل وفتح خالد الحيرة . وراح يمد فتوحه الى الشمال فسار الى الانبار على الفرات فعين التمر . ثم عن للخليفة أن يرسل خالد الى الشام مدداً لمن هناك وأن يغلف المثنى على جند العراق ( ١٣ هـ )

وترك خالد للمثنى نصف الجيش وهو حوالي ٩ آلاف مقاتل . واتخذ

المثنى الحيرة مركزا لقيادته . وعاصمة للارض التي استولى عليها من  
الفرس . وبث عيونهم من حوله حتى لا يؤخذ على غرة .

ولكن كسرى الفرس ( شهريزان بن اردشير ) لم يلبث أن وجه  
جيشا في عشرة آلاف فخرج المثنى للقائه . والتقى الفريقان ببابل فاقتتلا  
قتالا شديدا . وكان الفرس قد جلبوا معهم فيلا كبيرا أخذ يخيف المسلمين  
فانتدب له المثنى نفسه وجماعة من رجاله فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم  
المسلمون الى المدائن يضربون ألقيتهم .

وذهب المثنى مرة أخرى الى المدينة ليلقى الخليفة الاول ويحدثه  
بشأن زيادة قوته ويطلب اليه أن يضم اليه المرتدين من العرب الذين  
عادوا الى الاسلام .

ووجد أبو بكر على فراش الموت فلما استمع اليه قال :

انى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تمسين حتى تندب الناس  
مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى  
توفى رسول الله وما ضعفت . ولم يصب الخلق بمثله . وإن فتح الله على  
أمرأء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمرهم وجنده  
وكان أول عمل بدأ به عمر بعد وفاة أبى بكر هو ندب الناس مع  
المثنى .

قال عمر للناس : ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجمة . ولا  
يقوى عليه أهله الا بذلك . أين الكبراء والمهاجرون عن موعود الله . سيعروا  
فى الارض التي وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها .

وقال المثنى للناس : لا يعظمن عليكم أمر الفرس . فانا قد تبجحنا  
بريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم . وتلنا منهم .  
واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها .

وقال عمر للمثنى : اسمع من أصحاب رسول الله واشركهم فى الامر  
ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب . والحرب لا يصلحها الا الرجل  
المكيث الذى يعرف الفرصة والكف .

ولم يلبث المثنى بعد عودته أن أعد العدة لتأهيات الفرس . كما بث  
العيون وجاءته الاخبار باتجاه الفرس الى العمل . هنالك قرر أن يبادئهم  
وأن يقوم بالهجوم بدلا من الدفاع . لذلك خرج من الحيرة ونزل بحفان  
لثلاثي من خلفه . وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد ، الذى جعله المثنى  
على الحيل فى جيشه . وكانت معركة النمارق شديدة قاسية .

وتواصل هجوم الفرس فى جيش وراء جيش والعرب يردونهم بقوة  
وفى معركة « البويب » عمل المثنى بقوة وحصافة وحكمة . أرسل  
له « مهران » قائد الفرس وهو بازائه على الفرات يقول :

— اما أن تعبر إلينا . واما أن نعبر اليك .

فعبّر مهران فنزل شاطئ الفرات وعبأ المثنى أصحابه . وأمرهم بالافطار . ( وكانوا في رمضان ) ليكونوا أقوى على عبوهم فأفطروا . وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف وركب المثنى فرسه « الشمسوس » وقد سمى بذلك للينه . وكان لا يركبه الا اذا قاتل . وكان دائما أول الصف ، وأسرع الى القتال من جنده . وكان جنده يعلمون أنه يضحي بنفسه في سبيلهم .

وحمل المثنى على « مهران » فأزاله عن مراكزه حتى دخل في ميمنته ثم خالط الجيشان الواحد منهما الآخر . وكان المثنى قد أمر أصحابه بقوله : اذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه والزموا صفوفكم واغنموا عن يديكم .

واشتد ضغط المسلمين على قلب الفرس . وقتل « مهران » قتله غلام نصراني واستولى على فرسه . وتمكن المثنى من كسر قلب الفرس فأزاله عن موضعه وأقنى من كان فيه . ودفع هذا الحماسة في قلب العرب فاندفعوا ليسحقوا جيش الفرس الذي فر منهزما الى الجسر .

وسبقهم المثنى الى الجسر ، وأخذ طريق الفرس اليه فتركوا . وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم .

ولكن المثنى أصيب في هذه الغزوة . ومات من اثر جراحاتها .

وقد قتل كل رجل من العرب في هذه الموقعة عشرة من الفرس . وتبع المسلمون الفرس الى الليل وطاردوهم في اليوم التالي . وانتصر العرب ببراعة المثنى ولما سار سعد الى المثنى . كان المثنى يسلم الروح . فقد توفي قبل قدوم سعد بسبب جراحه . ولكنه كان قد ترك وصيته كاملة الى سعد ضمنها خلاصة خبرته وتجاربه في امر العجم ويقدم له خطة كاملة للعمل كانت هي النور الذي أضاء الطريق لسعد .

ومات المثنى في أوائل السنة الرابعة عشرة للهجرة وتزوج سعد زوجته التي وقفت بجوار سعد في غزوة القادسية فلما رأت ميمنة الخيل في جيش المسلمين تنحرف هتفت صارخة : وامثنياء ولا مثنى للخيال اليوم فلطمها سعد بيده .

وفي كل معارك المثنى كان قادرا . تأثر بطريقة خالد في الحرب . وكان عقلية عسكرية جبارة ، وله قدرة على العمل الخاطف في اللحظة الحرجة : فقد أصلح الجسر في احدى المواقع وحمل المسلمين من أن يلقوا بأنفسهم في الفرات . وقال للناس : أنا دونكم على مهل ولا تدهشوا ولا تخافوا . وظل المثنى واقفا فلم يعبر الا آخر الناس .

كما وصفه المؤرخون بأنه كان صاحب مكيدة وحيلة وحسن تدبير عن خبرة وتجربة . وكان الى ذلك نافذ الرأي قوى الارادة .

وهو في طول حياته يعطى صورة الرجل المؤمن المكافح الجلد الذي

لا يمل الكفاح والجلد في سبيل فكرته وإيمانه . وهو الى ذلك الفارس  
المغوار المدرب على الحرب والمواقع .

وعندى أن المثنى هو الذى حرض أبا بكر على فتح العراق وفارس  
ولولا ثقة المثنى التى ملأت نفس الخليفة الأول لما أقدم على ذلك ، فقد  
كان المثنى رجلا شجاعا بأسلا يملأ النفس بصدق قوله ويعول عليه ولا  
يذهب بقوله مذهب الخيال أو المبالغة والتهويل .

وأية عظمة شخصيته أن أبا بكر كان يريد أن يوليه ولكن عمر ولى  
أبا عبيدة لانه أول الناس انتدبا ومع ذلك فان شيئا من ذلك لم يكن  
موضع تفكيره أو مصدرا لتغير نفسه .



انه متى يسر الله فتح بقية الساحل أوصيت وودعت ودكبت البحر  
الى جزائره ، وتمقبت الفرنج فيها .

## صلاح الدين الأيوبي

يقف صلاح الدين الأيوبي على قمة من قمم تاريخ الاسلام وجهاد  
العرب في سبيل الحرية والكرامة ومقاومة الاستعمار . فان جانباً خطيراً  
من تاريخ الأمة العربية يرتبط باسمه ارتباطاً ضخماً . ذلك هو احتلال  
الصليبيين للساحل الشامي وانتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين  
ثم احتلاله لبيت المقدس وما ارتبط بذلك من وفاء ورحمة ذهل لها الفرنجة  
وأكبروها من البطل الاسلامي وهو في ذروة انتصاره .

وتعطي معركة حطين وما بعدها صورة صلاح الدين وترسم ملامح  
شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور فقد كان محارباً شجاعاً بالغ الشجاعة  
خبيراً بفنون الحرب وضروبها وهو في الماركأقصى ما يكون نقمة على عدوه  
فاذا انتهت الحرب كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه الى  
أبعد الحدود .

فقد استطاع صلاح الدين أن يضطر الصليبيين الى أن يحاربوا في  
وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب ، اذ أمسك بيده عنصر المبادأة  
واختار زمن المعركة وموقعها . وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم  
ليحاربوه في منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ليغريهم  
بالإسراع لنجدتها فتركوا مواقعهم الحصينة واندفعوا الى حيث أراد لهم  
صلاح الدين الهزيمة الساحقة فقد تقدم الجيش في أرض لا ماء فيها ولا  
زرع فقامى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة أعياء شديداً وتخلفوا عن  
الفرسان في الوقت الذي كانت قوات صلاح الدين تمطرهم وابلاً من  
السهم .

وهجم العرب على خيمة الملك - لوزنيان - فسقط أسيراً في قبضتهم  
كما أسر أرناط ومقدم الداوية وكثيراً من الفرسان . وقتل صلاح الدين  
( أرناط ) بيده جزاء وفاقاً لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان .

وتقدم صلاح الدين فأخذ يفض حصون الصليبية التي لم تعد لها  
قيمة حربية بعد القضاء على الفرسان فاستولى على عكا ( ٥٨٣ ) ونابلس  
وقيسارية وصفورية ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس ( رجب ٥٨٣ - سبتمبر ١١٨٧ )

حصاراً دام أربعة عشر يوماً ثم تمكن العرب من عمل ثغرات في الاسوار  
فسلمت المدينة .

هنالك أحس صلاح الدين بأن الله قد أتم له النصر . فوقف مناديه  
يوماً كاملاً من مطلع الشمس إلى مغربها ينادى : هل من فقير فتؤويه أو  
عاجز فننفعه من فدية يؤوده دفعها أو يعجزه الحصول عليها ؟

وسمح للفرنجة أن يغادروا المدينة في حمايته دون أن يصيبهم  
مكروه فيما يحملون معهم من غنائم أو أموال .

وخرج البطريق بمال كثير لم ينفق منه شيئاً في اقتداء يتيم أو  
مسكين . ورآه العرب فأشاروا على صلاح الدين أن يأخذ ماله فرفض في  
شدة وقال : لا . ما كان لنا من حق في ماله إلا العشرة دنائير . وغسرى  
من يغم المال عن طريق الغدر . دعوه يخرج به .

ذلك هو صلاح الدين في قمة شجاعته الحربية وقمة وفائه .

بل أنه عندما مرض ملكا الانجليز والفرنسيين في حصار عكا أرسل  
اليهما البلج والفاكهة والطبيب . وأهدى الى « ريتشارد » جوادين عندما  
رآه يقود جموعه راجلاً .

ولكن هل استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا النصر على الفرنجة  
بعد مائة عام من احتلالهم للساحل في سهولة ويسر وبساطة ؟

الحق ان صلاح الدين بذل جهوداً ضخمة متصلة حتى حقق هذا  
النصر . وكان أول عمله أن وحد الجبهة كلها وكتلها لمقاومة الصليبيين  
وقضى على الامراء المتنازعين .

وقد تنقل صلاح الدين في بلاد الشام يدعو الى الوحدة مؤمناً بأن  
الشام هو أصل بلاد الاسلام . وقد زار الرها وبرقة ونصيبين .

وقد قاوم الصليبيون هذا العمل بجهود مضاعفة وبذلوا في سبيل  
معارضتها وتحطيمها كل ما لديهم من أموال واغراءات . فقد أسرع  
الصليبيون فعقدوا مع بعض أمراء الموصل وحلب اتفاقات للوقوف في وجه  
تكوين جبهة عربية موحدة . ولكن صلاح الدين استطاع عام ( ٥٧٩ هـ )  
أن ينجح في جمع الشمل وأن ينسف كل الصخور التي كانت تقف في  
سبيل ذلك .

وكان الشهيد نور الدين محمود هو الذي بدأ هذا الاتجاه نحو  
الوحدة العربية الاسلامية ومضى فيه شوطاً . فلما توفي عام ( ١١٧٤ م )  
لم يكن في المنطقة كلها من يصلح لحمل هذه الرسالة والاندفاع بها خيراً  
من صلاح الدين في طموحه وجراته ووجوده على رأس دولة ضخمة من  
دول العرب كمصر .

وقد رأى صلاح الدين من المصلحة مهادنة الصليبيين حتى يتم له  
التكثيل العربي وزيادة قوات الجيش ومدتها بالاسلحة .

وقد حاول أرناط صاحب الكرك التعرض للقوافل . ووقف عقبة في  
سبيل التجارة بل عمد الى العمل على الاستيلاء على البحر الاحمر لولا أن  
سحق قواته أحد قواد صلاح الدين ( حسام الدين لؤلؤ ) في يناير ١١٨٣

وقد أكسبت صلاح الدين حياته في بلاد نور الدين واشتراكه في  
شبابه في معارك كثيرة خبرة ضخمة ثم جاء الى مصر في الركب ، غير أن  
القدر كان يخبى له الدور الاول . فهو ابن الظروف والاحداث التي  
وطدت له بعد ضربات سريعة مركزا ضخما في القاهرة لا يسارى وكان  
موت عمه أسد الدين وسيدته نور الدين وموت الخليفة الفاطمي على فترات  
متقاربة من العوامل الهامة الرئيسية التي أولته مكان الصدارة ودفعت به  
الى مكان القيادة .

كان أول ما اهتم له « صلاح الدين » هو نقل مصر الفاطمية الى  
السنة . فدعا للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي . وكان ذلك  
ولا شك من الامور الخطيرة التي تحتاج الى دراسة عميقة لنفسية الشعب .  
واعداد الخطة البتة لمواجهة الموقف .

انما أراد « صلاح الدين » أن يقوم بأضخم انقلاب في مصر دون أن  
يريق قطرة دم واحدة . وقد وضع خطته على مراحل . فأبطل من الأذان  
ما أضافه الفاطميون اليه تمييزا لدعوتهم . وهي عبارة ( حى على خير  
العمل ) فلم ينكر الناس عليه ، ثم كلف الامام في المسجد الجامع الكبير أن  
يخطب الجمعة على أن يهمل من الخطبة الثانية ذكر العاضد الفاطمي .  
وانتظر حتى يرى أثر ذلك ووقعه في النفوس .

غير أن الظروف نفسها كانت في صف « صلاح الدين » فقد مات  
العاضد قبل الجمعة التالية . وقد تأثر صلاح الدين وود لو كان له الا  
يرفع اسمه من الخطبة .

ولكن الامر لم يعض بهذه السهولة . فقد جاءت المؤامرة عقب الاحداث  
اذ تجمعت عناصر الشر لتفتال « صلاح الدين » وأمكن احباط المؤامرة التي  
قادها عمارة اليمنى . وكانت ترمى الى اغتياله واستدعاء الفرنجة من  
صقلية والساحل والاستعانة بالقرامطة الاسماعيلية .

وقد تمكن أنصار صلاح الدين من دس بعض الموالين لهم للعمل مع  
المتآمرين حتى وصلت الى المرحلة الحاسمة . وعند ذلك وضع المسئولون  
يدهم عليها .

وتلت هذه المؤامرة : مؤامرة أخرى : مؤامرة مؤتمن الخلافة العبد  
الخصى الذى كاتب الافرنج واتفق معهم . وقد وقعت المكاتبات في يد  
« صلاح الدين » في الوقت المناسب .

واستطاع صلاح الدين أن يدعم سلطانه في مصر برجال ثلثه :

القاضى الفاضل ، والمهندس بهاء الدين قراقوش ، والفقيه عيسى  
الهكاري .

وما أن انتهى « صلاح الدين » من القضاء على خطر الفاطميين حتى واجه خطر الفرنجة . ومضى يجاهد في سبيل الله صدر حياته حتى استشهد . وكانت غايته استرجاع بيت المقدس من أيدي الفرنجة ، وهو ان كان قد قضى قبل أن يقضى على الفرنجة نهائيا فهو قد مهد الطريق لمن جاء بعده وذلك لهم السبل لتحقيق هذه الغاية التي أتمها «الظاهر بيبرس» .

ولا شك أن معظم ما وصل اليه صلاح الدين من ظفر ونصر انما يرجع الى فضل نور الدين محمود الذي مهد له الطريق ورسم له الحطة وعبد له الارض . .

ولا شك أن طبيعة « صلاح الدين » النفسية ، كانت عاملا قويا من عوامل الظفر الذي كسبه في معارك الحرب ومعارك التمهيد والتوحيد والتجميع ، فقد تجمعت حوله الخصومات والعداوات . وحيكت حوله المؤامرات . حاكها خصومه في مصر في أذيال العهد الفاطمي . وحاكها خصومه من أمراء الشام . وحاكها الصليبيون حين اتفقوا مع الباطنية . وظل صلاح الدين صامدا للاحداث يؤمن بطريقه ، ويمضى على أسلوبه في الوفاء بوعد . ورفض في كل مرة أن يهاجم الفرنجة ، وهو على علم بما يدبرون من مؤامرات ، وكان يقول : انى لاستحي من الله أن يرانى ناقضا للعهد . وانى لاستحي من نفسى أن أكون كاذب الوعد . وما النصر الا من عند الله .



وما أن استقر الامر في مصر ، حتى خرج الى الشام ليرى امرها بعد وفاة نور الدين وليكون قريبا من موطن الاحداث . ولكنه لم يعد الى مصر بعد ، فقد شغله الجهاد حتى قضى وهو في قلب المعركة .

لقد كان العرب في حاجة الى شخصية قوية تجمعهم . وقد وجدوه في صلاح الدين . وسرعان ما اتسعت مملكته فامتدت من برقة الى اليمن الى النوبة الى ديار بكر والجزيرة وارمينية . وحق هنا تخلص بيت المقدس . وكان أمد المهادنة بينه وبين الفرنجة قد انتهى . وكانت ضربته في «حطين» من أقوى الضربات التي جاءت في وقتها . فقد حطمت مؤامرة ضخمة عقدت الفرنج خيوطها .

وعندما انضمت اليه حلب وفرج المسلمون بهذا الفتح . بلغه نبا وفاة أخيه فعزّن لذلك أشد الحزن ولكنه حرص على الا يبلغ ذلك للناس حتى لا يفسد عليهم فرحهم وانتحي ناحية وأخذ يبكي . ولما سئل عن حلب قال :

والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة .



عامل الفرنجة خير معاملة . عندما وقع معهم شروط الرحيل عن القدس ، ترك لهم المدينة حتى لا يؤذى شعورهم . واعفى من الضريبة

سبعة آلاف ٠ عجزوا عن الدفع ٠ وعندما أخفوا في بناء سور القدس اشترك في حفر الخندق ، ونقل الحجارة على عاتقه ولقد كان صلاح الدين غاية في الايمان بالله ٠ يطيل الركوع والسجود ٠ ويتوجه الى الله في الملهمات داعيا باكيا ٠ يعتمد على سلاح دعاء السحر في محاربة خصومه ٠ كما يقف منهم موقف الخلق والرحمة ٠ فلا يجهز على جريحهم ولا يقتل من جاءه مستنجرا ٠ هذا في الوقت الذي لقي فيه من ظلم الفرنجة وغدرهم الكثير ٠ ومع ذلك لم يفكر في أن يستخدم أسلوبهم ٠

وهو الى ذلك كله اديب مرهف الحس ٠ يحب الشعر ويكره الترف وينفر منه ، حرص على تطهير العقيدة من الاوهام والبدع وقد اتيج له أن يصل الى كل ما يريد ٠

وكان يجلس للعدل بين الناس يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ٠

ولم يرد قاصدا ولا طالب حاجة وما ترك مظلوما دون انصافه ٠ وقيل أنه كان يعطى فوق ما يأمل الطالب ويعطى الكثير ويبسط وجهه للمطاء بسطه لمن لم يعطه شيئا ٠

ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهما ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ٠

وقد وقف صلاح الدين على البحر ومعه القاضي الفاضل وابن شداد ٠ وقال : انه متى يسر الله فتح بقية الساحل قسمت البلاد واوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره وتعقبت الفرنج فيها ٠

ولعل مما يؤخذ على صلاح الدين هو فرط سماحته حتى أنه اطلق سراح جاي دى لوزبينان ملك بيت المقدس بعد أن وعده أن يغادر الشام ثم حنت بعهد للملك ومضى الى صور حيث طلبه كونراد صاحب حاميتها أن يتولى معه زمام أمر آرادته حيث اتجه الى طرابلس وحشد فيها الحشود وذهب الى عكا وكانت في يد العرب فضرب حولها الحصار عامين يعاونه فيليب ورتشارد ملكا فرنسا وانجلترا ٠ وقد قتل في هذا الحصار ستون الفا من المسلمين ، ثم جرت يوم فتحها مذبحة رهيبة ذهب فيها ألفان وسبعمائة مسلم ٠

وقد أدى سقوط عكا عام ١٢٦١ في أيدي الصليبيين الى نتيجة مؤلة رهيبة هي امتداد الحروب الصليبية مائة عام اخرى ٠

يرحم الله أبا ذر • يمشى وحده • ويموت وحده • ويبعث وحده •

## أبو زالفقار

( جندب بن جنادة )

دخل على النبي وأسلم مكانه • فقال له النبي : ارجع الى قومك  
فاخبرهم حتى يأتيك أمرى • فقال : أبو ذر : والذي نفسى بيده لاصرخن  
بها بين ظهرانيهم • فخرج حتى اتى المسجد فنادى بأعلى صوته : « اشهد  
أن لا اله الا الله » فقام القوم اليه فضربوه حتى اضجعوه •

وقد تلقى دروس الزهد عن رسول الله ، فكان لا يفترق عنه لحظة في  
سفر أو حضر ، يستمع اليه ويسأله ويحفظ عنه • وقد انقطع الى عبادة  
الله معرضا عن زخارف الدنيا • فاذا جن الليل أوى الى المسجد فنام مع  
أهل الصفة •

وأحب الرسول لزهده وتقشفه • وقضى رسول الله • ومضى أبو ذر  
يبشر بدعوته في احتقار الدنيا والزهد فيها ورعاية الفقراء وانفاق الاموال  
في سبيل الله •

ويقول : « ان الدنيا دار من لا دار له • ومال من لا مال له • ولها  
يسعى من لا يقين له » فاذا مات له ولد من ولده قال « انما يولدون للموت  
ويعمرون للخراب • ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى ، الا  
حبذا المكروهان : الموت والفقر »

ولاه النبي مرتين : حين غزا نجدا في السنة الرابعة للهجرة  
والثانية في السنة السادسة للهجرة حين غزا بنى المصطلق •

وفي غزوة العسرة : أخذ متاعه فحمله على ظهوره وخرج يتبع رسول  
الله ماشيا ونزل الرسول في بعض منازلهم فنظر أحد المسلمين فقال :  
يا رسول الله • ان هذا الرجل يمشى على الطريق وحده • فقال الرسول :  
كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله هو والله أبو ذر • فقال  
الرسول : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده •

وكان من أهل الصفة من الفقراء ، وألحقه عمر بمن شهد بدرا في  
توزيع العطاء على الرغم من أنه لم يشترك فيها •

\*\*\*

هجر أبو ذر المدينة الى الشام بعد موت عمر وأقام هناك • ورأى الدنيا

وهي تفتتح للمسلمين فيبنون القصور • ويكتزون الاموال • ويلبسون الحرير ويأكلون المرقق فجاشت نفسه بمعاني الورع • وآمن بأنه لا بد أن يواجه الجموع ويخاصم المترفين ويثبت فيهم كلمة رسول الله •

وكان يكتفى بشربة ماء أولين في ليلته • وفي كل جمعة قفيز من قمح • وكان ينفق ما يصل اليه من المال القليل • ويقول : ان خليل عهد الى ايما ذهب أو فضة او كى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله •

واجتمع الفقراء الى أبي ذر يستمعون اليه وهو يحدث عن الزهد والتقشف ، ويبدو في قامته الطويلة النحيلة ، ولونه الأسمر ، وعليه جلبابه الرقيق ، انه صورة ممثلة في الزهد •

ومضى أبو ذر يندد بالصحابة الذين أخذوا يجمعون الذهب والفضة ويبنون القصور • فقد كان عمر يحجزهم في المدينة فلما قضى ؛ وولى عثمان خرجوا الى الامصار •

وكان أبو ذر قد عاد الى المدينة بعد موت عمر وولاية عثمان • فرآها وقد تحولت الخلافة الى صورة الملك ، وبدت مظاهر الترف ، فبنى الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف الضياع والقصور • وكان لسعد بن أبي وقاص دار بالعقيق • ووهب عثمان أهله ومن حوله المال الكثير • اعطى مروان والحرث بن العاص ، وزيد بن ثابت • ولم يسكت أبو ذر فقد كان لا يخشى أحدا • ومضى يدعو الناس الى الزهد ويهاجم عثمان ويتلو الآية الخالدة التي جعلها مرآة دعوته : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشرهم بعذاب اليم » •

وكره عثمان دعوة أبي ذر ، ودعاه ليصرفه عما يقول : واتهمه بأنه يحرض الناس عليه • وكان أبو ذر قاسيا ، لا يعرف الهوادة فيما يؤمن به ، واجه عثمان بعنف « فوالله لان أرضي الله بسخطك أحب الى وخير لي من أن اسخط الله برضاك » ولم يجد عثمان بدا من أن يلحقه بالشام •

### \*\*\*

وفي الشام اصطدم أبو ذر بمعاوية مرة ومرة • كان معاوية يختزن الفى ويقول : انه مال الله • وكان أبو ذر يناهضه الرأي • ويدعوه الى أن يوزع المال على أهله لانه مال المسلمين • وبنى معاوية قصر الحضراء • وانفق عليه مئات الآلاف • وكره ذلك أبو ذر واتهمه بالاسراف وتوهجت دعوة أبي ذر فمضى يحدث الناس في المسجد ويحمل على معاوية وعثمان • وصاح صيحته ضد الاغنياء وكانزى المال • فاجتمع له الفقراء واجبوه •

ووشى به رجال معاوية وقالوا : ان أبا ذر يفتن الناس ويفسد عليك الشام • ولم يقف أبو ذر عند الدعوة بل قصده الى معاوية مرة ومرات يناهضه الرأي ويطلبه بأن يصرف أموال الفى التي هي من حق المسلمين اليهم ولا يختزنها • ويقول له ان الرسول وابا بكر وعمر ، كانوا يوزعونها واتهمه بأنه انما يحتجزها ليصرفها الى خيمه وحراسه وابته • بينما لا يحل له الا ما يكفيه للمبسة وطعامه كرجل من أوسط الناس •

وكان معاوية يهدده بأنه يسعو الناس الى الفتنة وكان أبو ذر يرفض أن يصمت ويقول : لا أرجع حتى يبذل الاغنياء فضلة أموالهم .  
ورفض أبو ذر أن يدفع الاغنياء الزكاة . وقال ان البر هو انفاق المال كله لا يبقى منه شيء .

وكان قلوبته في دعوته الرسول نفسه الذي لم يترك درهما ولا دينارا . وحديثه « الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة » .

وحمل حملة شعواء على اكساز المال ، وبناء القصور والتماس اللوان الطعام وقد خرج رسول الله من دنياه ولم يشبع من خبز الشعير .

وحاول معاوية أن يتخذ الطريق الى قلب أبي ذر على أسلوبه فارسل اليه ألف دينار ذات مساء . فلم يصبح الصباح حتى اذا كان أبو ذر قد وزعها على المعوزين . فلما صلى الصبح ، جاءه رسول معاوية يقول له : « انقذ جسدي من عذاب معاوية . انه قد أرسلني بهذه الدنانير الى غرك فاخطأت حين جئت بها اليك . فقال له أبو ذر ، « يا بني والله ما أصبح عندنا من دنانيرك شيء . ولكن اخرنا ثلاثة ايام حتى نجتمعها .

وقد أكد هذا لمعاوية ان الرجل صادق في دعوته . وأنه لم يدخر المال في بيته ليلة واحدة ولم يشن ذلك أبا ذر فتبلا عن دعوته فمضى يدعو الناس ويجتمع بهم وينهاهم عن كنز المال . ولا يكف عن الحملة على الاغنياء .

ووقف معاوية على المنبر يقول : « انما المال مالنا والفيء فيئنا » فوقف له رجل من أقصى المسجد وقال له : ان المال مال المسلمين لا مالك يا معاوية . وعرف معاوية أن دعوة أبي ذر قد تأصلت في نفوس الناس وانها بدأت ثمارها .

وجاء أبا ذر من يهدده باهدار دمه . ولكن انى لهذا أو غيره أن يرد الرجل الزاهد الذي لا يهاب الموت ولا يخشاه .

وأصر أبو ذر على أنه لا يكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين . وأعلن أن اغضاب معاوية خير من اغضاب الله .

وكان أبو ذر في خلال هذه الفترة من الكفاح قد لقي مزيدا من الاعنات ، فقد انقطع عنه المال . وعاش حياة مهددة . واضطهده أصحاب معاوية . ولكن ذلك كله لم يردعه عن دعوته ولم يكفه عن صيحته .

وماتت ابنته بعد أن مرضت طويلا ، دون أن يعنى بها . فقد كان ماضيا في طريق دعوته ولا يعوقه شيء مؤمنا بأن الاموال لله والاموال فتنة .

وضاق معاوية بأبي ذر فكتب في شأنه الى عثمان يقول :

ان أبا ذر يجمع حوله الجموع وقد ضيق على واعضل بي . ولا آمن



أن يفسدهم عليك فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله • وحمل على قتب الى المدينة حتى كاد أن يتلف •

وفى المدينة عاد الى دعوته والى صراعه مع عثمان •

ومضى يهاجم أسلوبه فى الحكم ويدعو الى انفاق المال ويطالبه بان يتبع طريق صاحبيه • وحظر على الناس أن يجتمعوا به ولكن الناس كانوا يستمعون اليه مؤمنين • ومضى هو يفتيهم ويهاجم الاغنياء فى عنف ولا يخشى شيئاً •

وكره عثمان بقاء أبى ذر فى المدينة • واختار أبو ذر الإقامة فى « الرينة » فخرج اليها حيث عكف على العبادة والصلاة • وبنى مسجدا صغيرا يصلى فيه • ولم يلبث موسم الحج أن بدأ • وبدأ توافد الناس على أبى ذر وهم فى طريقهم الى مكة ليستمعوا اليه وهو لا يتحدث عن عثمان ولكنه يتحدث عن الزهد والايمان وانفاق المال فى سبيل الله •

وامضى أيامه فى المنطقة الجرداء القفر مع زوجته وبعض غلمانه • وقد أعطاه عثمان بعض الابل ، وأجرى عليه العطاء •

وكانت قد تقدمت به السن ، وفقد أولاده واحدا بعد واحد •

وكانت الدنيا هيئة عليه منذ اليوم الاول فلم يحفل بها • وزادته الوحدة انصقال نفس واشراق قلب • ومضى يذكر أيامه فى صحبة رسول الله ، وتلك الوصايا التى أوصاه بها •

وذكر يوم أن قال له الرسول : انه سيتمحن وسيلقى من بعده الاذى وكيف انه لم يرتجف • وانما سأل عما اذا كان ذلك فى الله • فلما أمن الرسول على قوله • قال • مرحبا بأمر الله •

وفى هذه الفلاة الموحشة جاء الموت لابی ذر • وليس من حوله الا زوجته وليس عنده ثوب يكفن فيه • ووقفت زوجته تحديق فى الفلاة لتشير الى أى من تراه مارا لتدعوه •

فلما أقبلت قافلة من الناس دعتهم اليها • فلما رأهم ذكر قول الرسول « ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض تشهده عصابة من المؤمنين » •

كان ذلك عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق فلم يرعهم الا الجنائز على قارة الطريق • وكان ذلك عام ٣١ هـ •

قال عليه السلام : ما اقلت الغبراء ولا اظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر •

ويروى الطبرانى : أن رسول الله كان يبتدىء أبا ذر اذا حضر • ويتفقده اذا غاب •

لقد عاش أبو ذر يحمل الدعوة الى الزهد • يقول كلمة الحق •

وقد حملت دعوته الاجيال • •

## الحسن البصرى

دخل الامام على جامع البصرة فاخرج القصاص وهو يقول :

القصص بدعة •• حتى انتهى الى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع اليه فاعجبه كلامه فقال : يا فتى ، اسالك عن شيئين • ان خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس والا اخرجتك كما اخرجت اصحابك •  
فقال : سل يا امير المؤمنين • فقال اخبرنى : ما صلاح « الدين » وما فساد •

قال : صلاحه الورع وفساده الطمع • قال صدقت فتكلم فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس •

ذلك هو الحسن البصرى داعية الورع والزهد والتقوى • اول من وضع أسس الزهد ورسم طرق محاسبة النفس وأعلى من شأن فضائل الخوف والرجاء •

يقول : ان الخوف والرجاء دعامتان يستند اليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء • لان الرجاء عندما يغلب الخوف يقضى الى فساد القلب •

ومضى الحسن البصرى يدعو الى تخليص المجتمع من الفساد الذى دب فيه حينما بدا الرعيل الأول من الصحابة يجمعون الأموال ويبنون القصور ويتخذون الفراش الوثير وأواني الذهب والفضة والحجاب والشرطة ويقلدون المظاهر الكسروية والابهة الفارسية •

رأى الحسن البصرى ان عوامل الفساد هذه التى سببتها الاموال التى جاءت بعد الفتح ، لادافع لها الا تطعيم المجتمع بمبادئ الزهد •

فبدأ يسخر من النفع المادى ، ويحارب المآرب الدنيوية • ويجمع من حوله المريدين صارفا اياهم عن الانحراف والجشع والتطلع الى الاثرياء • ومضى يقول :

« انكم لاتنالون ماتحبون الابتراك ماتشتهون • ولاتدركون ماتؤمنون الا بالصبر على ما تكرهون » •

وحتى ثبتت هذه المعانى فى النفوس مضى يصور الموت بصورة مرعبة تذهل النفوس عن الواقع الذى يعيشون فيه ، واقع الفقر والظلم •

وقد صور ذلك فى قوله : « ان أخلص الناس ايمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه ، وأشد الناس فرحا يوم القيامة أشدهم حزنا

فى الدنيا ، وأن أكثر الناس ضحكاً يوم القيامة أكثرهم بكاء فى الدنيا ، -

\*\*\*

نصب « الحسن البصرى » نفسه قاصداً بالمسجد مخالفاً مذهب القصاص من تهويل واغراق ، ومضى يتكلم عن الموت - وعبوب النفس والرهادة فى المال والشيطان الذى يجرى فى الإنسان مجرى الدم .

وأخذ من حديث رسول الله هذا الجانب الذى يحمل الوعيد ، ويرسم صورة الخوف الشديد ، والتحرز من الصفائر ، والرهبة من عذاب النار ، واستصغار الدنيا الفانية ، وقال ان أساس الدين التقوى والحزن والحوف .

وكانت حلقة من رسم جديد ، فى الاسلام . تدعو الى الانقطاع لله . واوصى المنقطعين أن ينتهجوا ثلاثة مسالك : الأمل والأجل والسحر .

بعد الحسن البصرى المدرسة الفلسفية لمذهب « أبى ذر » فقد ولد بعد الهجرة بعشرين عاماً ، وتفتحت نفسه للحياة فى عهد عثمان . وكان مقتل عثمان نفسه هو عقدة حياته وروح فلسفته .

فقد رأى الثورة على عثمان . وشاهد أبى ذر . واستمع اليه ورأى حماسه وعلق بنفسه اثر من معانيه . وزاد هذا المعنى أنه من الموالي .

وقد بدأت للموالي قضية منذ ذلك التاريخ ، بدأت مع الأحداث ، حينما استطالت النزعة العربية واستعلت على غيرها . فلما خرج للغزوات رأى هؤلاء الموالي وهم يذهبون وقوداً للحرب . بينما يظفر العرب بالفنائم . وقد أداه ذلك انى ان ينصرف من الغزو الى الزهد . ومن الصراع على مطامع الحياة الى دعوة الناس الى العبادة . والدعوة الى كراهية الدنيا والانصراف عنها .

وكانت الصورة المثالية لعهد عمر ، هى التى رسمت له طريقه . والتقى بفقهاء أعلام فى المدينة منهم : عياض بن حماد . ومقل بن يسار المزنى . وسحرة بن جندب . وأبو عثمان الهندى .

وفى خلال الغزوات تعرف بقطرى بن الفجاءة . والمهلب بن أبى صفرة وغادر الحسن المدينة الى البصرة أيام صفين . وتردد على حلقات مسجدها . واستمع الى العباس يفسر القرآن . وتعلم من حطان الرقاشى القراءات .

والتقى فى البصرة بعمر بن أبى الحصين . وعبد الرحمن بن سمره . واستمع من هؤلاء جميعاً أحاديث رسول الله وقصص ورعه . فكونت فى مجموعها العوامل التى تتفق مع طبيعته فى الاتجاه الى الزهد . اذ لا شك ان الحسن كان قد تأثر بطبيعة هذا الاتجاه ، غير ان هذه الصور والرؤى قد اعطته مادة فنه ودعوته وانشأت ذلك المذهب الجديد الذى انفرد به قصاصو البصرة ورضى عنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وأتبع للحسن أن يذهب الى أقصى المشرق مع الغزوات فحضر حصار كابل وفتحها . وعمل مع الربيع بن زياد والى خراسان .

وكان الحسن يؤمن بمبدأ التقية . ولذلك وقف من الدعوات المختلفة ، والصراع المستمر موقف المتفرج .

وعاش ممتنعاً عن أكل اللحم والسمن والدخول على الامراء .. ثم انقطع أخيراً عن مجلسه في المسجد الجامع .

وعندما سمح سليمان بن عبد الملك للناس في توزيع الاراضي الموات كي يستغلوها رأى ابنه الناس وقد أقبلوا على أخذ الاقطاعات فذهب الى أبيه يقول : لو أخذنا كما يأخذ الناس .

فقال الحسن : اسكت مايسرنى لو ان لى ما بين الجسرين بزنبيل تراب .

ولم يمنعه هذا من أن ينصح للدعاة وطلاب الملك . فقد كتب لابن الزبير يقول : ان لأهل الخير علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم . منها الصبر على البلاء والرضى بالقضاء . انما الامام سوق فما نفق فيها حمل اليها . فانظر أى سوق سوقك .

واتسعت شهرة الحسن البصرى وكثر أتباعه في أواخر أيام معاوية واستجابت البصرة لدعوته وقد كان الحسن جريئاً في الحق . نقد الولاة وجهر بمخالفته لاستخلاف يزيد بن معاوية ، ومعارضة الخلافة الأموية الوراثية . وقد وضعه هذا موضع مراقبة عملاء الحجاج حتى اضطر الى الاختفاء والتوارى .

ولكنه لم يمض في سبيل مقاومة الحكم . واكتفى بأن يدعو الناس الى الزهد واستصغار الدنيا .

جمع ما بين العلم والورع . وكان يقال له صاحب العمامة السوداء ، قال عنه نقاده : عليكم بهذا الشيخ . فوالله ما رأينا أحداً ممن صحب رسول الله أشبه بأصحابه منه ويقال انه ما ضحك أربعين سنة .

يأكل خبز الشعير في خاصته ، ويطعم أهله الجشكار . فإذا جنه الليل لبس المسوح . وغسل اليد الى العنق . وبات باكياً حتى يصبح .

ولم يخالف قوله فعله . يبذل المال في سقاء . ويرفض زواج ابنته من رجل غنى . بيته من الخشب . خلو من فراش أو بساط أو حصير . وسريه منسوج من السعف .

وكان طويل القامة ، عريض العظام ، جميل الوجه وسيما عيناه زرقاوان وصوته جهورى .

ولما اشتد به الوجع طلب الى الخادم أن يسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها فأحرقت غير صحيفة واحدة .

ورسم « الحسن البصرى » بحياته صورة ممتازة للشخصية الزاهدة التي لا يخالف قولها فعلها . آمن بدعوته وفنى فيها . وعاش لها تسعين عاماً الا عاما واحداً . كان عمر بن الخطاب مثله الأعلى . وحذيفة بن اليمان أستاذه . التقى بسبعين بدرياً . ورأى ثلثمائة صحابى . قيل وكان كلامه يشبه كلام الرسول .

ان معى ربهى سيهدين •

## منذر بن سعيد

انفق الناصر ثلثمائة الف دينار كل عام على بناء الزهراء • وظل  
على ذلك خمسة وعشرين عاما • وجلب لها زخارف الدنيا وبدائعها • ألف  
سارية من أفريقيا • وحوضا منقوشا بالذهب غريب الشكل • وجعل على  
الحوض اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس القالي •  
ويخرج الماء من أفواهها • وبني بركة واسعة عليها أسد عظيم الصورة •  
شديد الروعة مطلي بالذهب • وعيناه جوهرتان لهما لمعان شديد يجوز  
هذا الماء الى عجز الاسد ، فيدفعه في البركة من فمه فيبهر الناظر •

\*\*\*

وغضب منذر لذلك أشد الغضب • ومضى ينصح لعبد الرحمن ،  
ويتناوله بالنقد جاهرا غير مبال • فأراد الناصر أن يرضى الناس • فبنى  
مسجد الزهراء وحشد له ألف عامل • وفرشه بالرخام المرمى وجعل في  
وسطه فوارة يجرى فيها الماء •

وعندما وقف منذر على المنبر بعد ثلاثة أسابيع انقطعت فيها الصلاة  
الجامعة قرع الناصر ، وقال انه انصرف الى الزخرفة والبناء عن غزو  
الاعداء ، ومغالبة الفرنجة • وبدأ بالآية الكريمة : « اتبنون بكل ريع آية  
تعيشون • وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون • واذا بطشتم بطشتهم جبارين  
فاتقوا الله وأطيعون • »

وظل منذر يردد معاني الايضال في الترف وحب البناء والاقامة •  
والاعراض عن الجهاد حتى دامت عينه الناصر • وان كان قد عتب على منذر  
تقريعه • ولكن « الناصر » كان يقدر الامام قدره ، ويرى له مكانته  
وعدله ، فقد ذهب المناقون يغرونه بمزل منذر فرفض • وقال : « امثله  
منذر في فضله وورعه وعلمه يعزل في ارضاء نفس ناكبة عن الرشده ؟  
اني لاستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شقيعا مثل  
منذر في ورعه وصدقه • »

والتف الناس حول منذر الذي عاد الى بيته في نفس الطريق •  
وأخذوا يخوفونه غضب الخليفة • فقال لهم في بساطة : ان رضا الناس  
لا يوازي غضب الله • وان سطوة الله أعظم من سطوة أمير المؤمنين •

وقيل له لو التمسست رسولا للخليفة ليزيل ما في نفسه ، فضحك  
ابن سعيد وقال : ان معى ربهى سيهدين •

• وذهب القاضي الى بيته حيث لا يخرج منه الا ليؤدي الصلاة •  
واستدعاه الناصر لمقابلته : فلبس رث الثياب وأردأها • ودخل عليه  
مجلس الذهب حيث دبج بأصناف الديباج وفاخر الرياش •

وجلس ابن سعيد في آخر المجلس ، فأوما اليه الناصر أن يقترب  
فقال : يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث ينتهي به مجلس ولا يتخطى  
الرقاب •

وكان منذر مطرقا وهو يتحدث • فقال له الخليفة : ما تقول في  
هذا القصر العظيم ؟ ورفع رأسه لأول مرة • وقلب النظر فيما حوله ، في  
الصرح الممرد من قوارير الذهب والفضة • وأجاب :

ذرنى ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا ،  
رمهدت له تمهيدا • ثم يطمع أن أزيد • كلا انه كان لآياتنا عنيدا •  
سأرهقه صعودا •

وبلغ الأمر من ذلك أن خاف ابن طاووس • وكان يجلس الى جواره  
أن يأخذه غضب السياف • فقال : فضمت ثيابى خوف أن ينالنى دمه •

ورجع القاضي الى بيته • وجاء من أسر اليه بأن الناصر أمر بنقض  
سقف القبة واستبدال قوارير الذهب والفضة بقوارير الآجر وأمر بهدم  
التمائيل فى مجلس الذهب •

هذه هي الصورة التى ترسمها كتب التاريخ لمندر بن سعيد قاضي  
الاندلس الشخصية البارعة الجريئة التى عرفت ببلاغة الخطابة وعدالة  
الحكم وقوة الحجة • وعمق الفهم • والفقيه الذى طوف بلاد المشرق حيث  
تلقى ابعام والفقه ونبغ فى فهم الأدب والتاريخ وتذوق الشعر والفنون  
المختلفة • والمجاهد الذى هاجم الصليبية فى الاندلس كله •

وقد كان منذر مقطوما عن الشهوات عزوفا عن الترف والاهواء •  
قد جعل الله عقله أكبر من عاطفته • فبهر الناس بخلقه ورجولته ونزاهته •  
حتى لقد ألزم «الناصر» الحق مرات عدة •

لقد كان منذر مثالا للأئمة الاول الذين عرفتهم عصور الاسلام فى  
قوته وازدهاره مثالا فى النصيح والتسديد • وقول الحق • وخشية الله  
وحده •

وكان الى ذلك حاضر البديهة جيد النادرة لبقا • حلو العبارة • فيه  
من روح النبوة مسحة • ومن أسلوب الرسول شبه •

وقد عرف بالاجتهاد ولم يتقن فى الافتاء غير مذهب مالك • وأفسح  
الناس فى الرأى وبسط وجوه الشريعة •

ولى القضاء فى عهد عبد الرحمن الناصر واستمر الى أن مات فلما  
ولى ابنه الحكم استعفى وقد أثنى عليه المؤرخون وخاصة الفتح بن خاقان •  
لم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور • وله كتب فى القرآن والسنة والرد  
على أهل الاهواء •

توفى بقرطبة عام ٩٤٦ م •

« أردت عمرا وأراد الله خالجه »

## عمرو بن العاص

قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص :

لقد عجبت في ذهنك وعقلك . كيف لم تكن من المهاجرين الأولين .  
فقال عمرو :

وما أعجبك يا عمر في رجل قلبه بيد غيره . لا يستطيع التخلص منه  
الا الى ما أراد الذي هو بيده .

قال عمر : صدقت .

\*\*\*

أسلم عمرو متأخرا . وحين خرج من مكة يريد المدينة وجد في طريقه خالد بن الوليد وعثمان بن أبي طلحة ، ذاهبين لنفس القصد . فدخل ثلاثهم على الرسول . واقترب منه عمرو وقال : يا رسول الله انى أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي . فقال النبي : يا عمرو بايع ، فان الاسلام يجب ما قبله ، والهجرة تجب ما قبلها . ثم قال : اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص .

وكان عمرو سفير قريش الى النجاشي مع عبد الله بن أبي ربيعة يطلبان اليه أن يسلم المسلمين المهاجرين . وقد حملا معها الهدايا والعطايا . ورفض النجاشي . كما اشترك في عدد من المعارك ضد المسلمين وهو جندي محارب عاش على عصبية البيئة متمثلة في أبيه العاص بن وائل حتى ذهب هؤلاء القوم الاقوام العتاة . . هنالك كشفت امامه وامام زملائه حقائق الأمور . وذهبت الأوهام من النفوس .

وقد قلده النبي « اللواء » في غزوة ذات السلاسل وجعله على ثلاثمائة من سراة المهاجرين والانصار من بينهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وقد قام بعمليات حربية ليلية امعانا في التستر وكان يكمن بالنهاري ويسير بالليل . وقد منع قومه من الاصطلاء بالنار حتى لا يكشف أمرهم .

وهو أول من استنفر المرأة مع زوجها لتدفعه في قوة الى الحرب ، واشترك في حروب الردة في اخضاع قبيلة قضاة . كما عقد له عمر اللواء على الجيش الذي سار لفتح فلسطين فتوالت انتصاراته على الروم

فى جميع المواقع التى خاض غمارها • واطهر بسالة فائقة يوم اليرموك •  
ويوم اجنادين •

وعندما بعثه عمر فى الغزو قال : انى سهم من سهوم الاسلام وانت  
بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر اشدها واخشاهها وافضلها فارم بها  
شيئا ان جاءك من ناحية من النواحي •

\*\*\*

وعمر هو الذى طلب من الخليفة عمر فتح مصر • ووصفها له بأنها  
أكثر الأرض أموالا • وكان ثمة بها خبيرة سابقة عندما قدم إليها فى  
الجاهلية • ولقد ظل يهون على الخليفة الأمر حتى أذن له • فلما أوشك  
أن يمضى أنذره بأنه قد يرسل له خطابا يطلب منه فيه الرجوع عن فتح  
مصر • فاذا جاءه الخطاب قبل أن يبلغ حدودها فليرجع • وكان قد أرسله  
فى أربعة آلاف من أهل اليمن •

فلما كان عمرو فى بعض الطريق قرب رفح وقد أوشك أن يدخل  
مصر وإفاه رسوله بخطاب منه فأرجأ تسلمه حتى دخل الفرما وكان عثمان  
قد أغرى عمر بإعادة عمرو قائلا ان به جرأة وحبا للامارة • فلما تسلمه  
فرح لانه كان قد جاوز الشرط الذى اشترطه عليه وأوغل فى البلاد •

وقد بلغ العريش عام ١٨ هـ ، فلما بلغ الفرما حاصرها أكثر من  
شهر لما كانت عليه من قوة ومنعة • ثم دانت له فبارحها إلى القنطرة  
فالصالحية حتى دخل بلبيس ولما وجد ابنة « المقوقس » فى بلبيس ردها  
إلى والدها معزة فأعجب هذا التصرف أهل مصر •

كانوا أربعة آلاف أولئك الذين ساروا بأمرته يقطعون الصحراء ••  
ويدخلون مصر ويحاصرون حصن بابليون وقت فيضان النيل • فلما طالب  
الخليفة بالممدد أمدده بأربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام والمقداد بن  
الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد •

وقد فتح حصن بابليون الذى ظل يقاوم سبعة أشهر ، ثم سار إلى  
الاسكندرية • ثم فتح برقة لتأمين حدود مصر الغربية ثم امتد نفوذه إلى  
بلاد النوبة • ووقع اختياره على مدينة الفسطاط • وأعاد حفر الخليج الذى  
كان يصل النيل بالبحر الأحمر •

وعامل القبط بالتسامح ، وحفظ لهم جميل مذهبهم له بالمساعدة  
وتيسير مهمة الفتح ، وبدا يبرز المجتمع فى صورة تلاق واندماج كاملين

وعندما ولي عثمان الخلافة عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر  
وولاه عبد الله بن سعد بن أبى سرح •

ثم انضم عمرو إلى معاوية • وهو صاحب خدعة رفع المصاحف على  
أسنة الرماح ، ونجحت حيلته . وهو أيضا الذى غرر بأبى موسى الأشعرى



ودفعه الى الاقرار بأن يعزل كل منهما صاحبه وجعل الأمر شـووي  
للمسلمين ، فلما وافق أبو موسى أغراه بأن يتحدث هو أولا فقام الأشعري  
فعزل عليا ، وقام عمرو من بعده فثبت معاوية . وقد أعاده معاوية الى  
مصر مكافأة على صنيعه .

\*\*\*

وعندما أراد الخوارج قتل الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو وحددوا  
لذلك موعدا تصادف أن أصيب في ذلك الصباح بوعكة مفاجئة ، فندب  
( خارجة بن حذافة ) عنه لصلاة الفجر فظن الخوارج أنه هو فأصابوه .  
وذهبت مثلاً « أردت عمرا وأراد الله خارجة » .

ووصف رجل عمرا فقال « رأيت رجلا ربعة قصير القامة . وافر  
الهامة . أدعج أبلج . عليه ثياب موشاة . كأن به العقيان . تأتلق عليه  
حلة وعمامة وجبة » .

ومن قوله : « اياكم وخلالا أربعا : فانها تدعو الى النصب بعد الراحة  
والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال .  
واخفاض الحال . وتضييع المال . والقليل بعد القال ، في غير ذلك ولا  
نوال . ثم لا بد من فراغ يزول اليه المرء في توديع جسمه » .

ومن اقواله انى تمثل بلاغته في وصف مصر :

لقد تدلت الجوزاء . وزلت الشعري . وأقلعت السماء . وارتفع  
الوباء . وقل الندى . وطاب المرعى . ووضعت الحوامل . ودوجت  
الشمائل . وعلى الراعى بحسن رعيته .

« واربعوا خيلكم واسمنوها . وصونوها . واكرموها . فانها جنتكم  
من عدوكم وبها مفانكم وأنفالكم » .

وقد وصف عمرو بالدهاء السياسي . وكانت له موهبة عسكرية  
واضحة ، وقطنة سياسية وضحت في كل تصرفاته . وقد مكنته ذلك من  
الانتصار على جيش الروم الذي كان يبلغ عشرين ألفا بفضل الصبر  
والقيادة المنظمة .

ومن دهاء عمرو وحذقه أنه ابقى رسول المقوقس لديه فترة من الزمن  
حتى يرى قوة العرب وصلابتهم ، فلما طاب الرسول وفدا يتحدث اليهم  
ارسل لهم عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طويلا مهيبا .  
وأمره أن يكون يتحدث القوم ، فلما دخلوا على المقوقس اهتم لمنظر عبادة  
وهاب سواده فطلب تنحيته فأصروا على أنه هو أميرهم ومحدثهم .

اعتزال الولاية للمرة الأولى عام ٢٧ هجرية عندما أشرك الخليفة  
عثمان معه عبد الله بن سعد ، فلما بدأ الخلاف بين معاوية وعلي ، ووقف  
الى جانب معاوية أعطاه مصر طعمة ، أى أن يكون له خراجها ، وذلك معه  
ان فتحها معاوية للمرة الثانية وضمها الى حكومة دمشق عام ٣٨ وكانت  
قد تابعت حكومة الكوفة ولم يبق بها الا سنوات معدودة فقد توفى عام  
هجريه .

لست بغر من أحدكم • ولكنى أثقلكم حملا •• ألا لا طاعة لمخلوق  
في معصية « الخالق » •

## عمر بن عبد العزيز

ما أبعد الفرق بين شبابه وشيخوخته ، أشجع بنى أمية هذا الذي  
من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الارض عدلا •

كان يلبس الرقيق من الثياب • ويمشي المشية العمرية المعروفة •  
قلما وصل مقام الخلافة كان يلبس الخشن من الثياب • ويأتم بالمسح  
والزيت • ويقوم الى الصلاة فيطيل القيام • ويركع فيطيل الركوع •

كان في شبابه أنيقا يرعى شـعره ويسبل ازاره ويتبختر في  
مشيـته • وكان مترفا غنيا • عاش في مصر في دار الامارة بين عظمة  
الملك وجلال السلطان •

وكان يشتري مطرف انخبز بثمانمائة درهم • ويقول ما أخشنه •  
وما كان يلبس ثوبا فيراه الناس فيه الا خيـل اليه أنه قد بلى • وكان  
يتطيب برائحة عرفت به فيه القرنفل والعنبر •

وعندما سافر من مصر الى المدينة كانت هناك عشرات من الجمال  
تحمل ثيابه • وكان يحنق الغناء ويحب •

وفي سن الأربعين ولى عمر الخلافة بكتاب من سليمان بن عبد الملك  
كتبه عند موته • وهنا تجيء نقطة التحول في حياة عمر الذي كان معروفا  
بالوقار والخلق • ولم يكن على تجمله صاحبا أو عابثا •

وفي لحظة واحدة تحول عمر من الترف الى الزهد ، فبعثر ملبسه  
طعامه ومنزله • وبدا في صورة من الورع ، قل أن عرفت في التسايف  
الا للقلائل •

اشترى جبة من الصوف بثمانية دراهم • وتغير منه كل شيء الا  
مشيته التي وكل بها تابعه « مزاحم » ويقول له : « ذكرني اذا رأيتني  
امشي » فيذكره فيخطئها ثم لا يستطيع الا اياها فيرجع اليها •

زهد عمر في مراسم الخلافة : رد المراكب المظهمة • ورفض  
النسران • ورفع فراش الخلفاء • وضعه الى بيت المسال • وعاد الى نعله  
وحصيره • أتى له بالجوارى فخيرهن وزدعن الى أهلن • وحملهن الى  
البلاد • بل ان طلب من زوجته فاطمة أن تودعها معها من مال وعمل الى  
بيت المال •

وزفّض عمر في لومة الامة أن يقل في الظهر قبل أن يرد المظالم  
فرد مظالم سليمان بن عبد الملك كلها ، وأعاد الحقوق إلى أربابها ، وتنازل  
عما ورثه . وخرج عما كان تحت يده من قطائع وضياع . فحرق سجلاتها  
وأعادها إلى المسلمين .

وفرّح الناس ببينة عمر وغضب بنو أمية . فقد قطع عنهم الإعطيات  
الضخمة التي كانوا يحصلون عليها من الخلفاء .

وضرب المثل في قوة الشخصية عندما وقف أمام « البيت الأموي » ،  
كله فلم يكن له خصم سواهم ، فقد ألقي إعطية ٢٠ ألف دينار ، كان أمر  
بها سليمان لعتبة بن العاص . فلما جادله قال له : عشرون ألف دينار  
تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها إلى رجل . والله ، والله ما إلى  
ذلك من سبيل .

وشكت عنته من قطع الإعانة التي كانت تحصل عليها فقَالَ لها :  
يا عمة انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين . وليس ذلك المال لي . ولكني  
أعطيتك مالي أن شئت . ورد مظالم بنو أمية كلها . ما من رجل جاء له  
في مظلمة اغتصبت إلا ردها إليه ببينة يسيرة . وقصة روح بن زبابغ الذي  
كان الوليد قد أقطعته حوانيت بحمص معروفة . فقد رفض روح أن  
يسلمها ، فأرسل عمر من يطلب إليه تسليمها أو يأتيه برأسه .

ودخل إليه أهله يسألونه أن يجري عليهم ما كان جاريا عليهم من  
قبل من إعطيات . فقال لهم : والله ما هذا المال لي . ومالي إلى ذلك من  
سبيل .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن عمرا جمع بنو مروان وطلبهم  
بشطر أموالهم وتقديم تصفها لبيت مال المسلمين . فلم يجب أحد منهم  
وقال أحدهم : والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا فننقر  
أبناءنا ونكفر آبائنا حتى زایل رعو سنا أجسادنا . فهددهم عمر وأقسم  
لئن عاش ليردن إلى كل ذي حق حقه .

وكانما كان موقف عمر هذا من أهله هو نهايته . فقد دفعهم إلى أن  
يقتلوه على هذه الصورة التي مات بها . حين دسوا له السم في طعامه .

يصف عمر نفسه فيقول : كانت لي نفس تواقة . فكنت لا أنال  
شيئا إلا تأقت إلى ما هو أعظم منه . فلما بلغت نفسي الخلافة تأقت إلى  
الآخرة .

\*\*\*

بدل عمر حياة الناس . وأسعد الناس بعدالته . وتحول المجتمع  
في عهده عن اللهو والترف ، حتى كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن  
الحزب والصلاة والضياع .

ورد في الأخبار أن الوليد كان صاحب بناء وعمران ، فكان الناس  
يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والضياع . وكان سليمان

صاحب طعام وزواج فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الطعام والزواج والطلاق .

وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصلاة والصيام .

وقد رد عمر المجاهدين عن الثغور . واقنع الخوارج . وأبطل لمن على المناير ، وأقام الشعراء على بابه لا يأذن لهم بالدخول .

كان يقول لمن عنده : من صحبنا فليصحبنا بخير والا فلا يقربنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها . ويعيننا على الخير بجهد . ويدلنا على الخير ما نهتدى إليه ، ولا يفتاب أحدا ولا يتعرض لما لا يعنيه .

وقد بعث واليه في مصر يقول ان الناس يدخلون في الاسلام ، وأن هذا يؤثر على الخراج . ويسأله عن أمر الجزية .

فقال عمر : ضع الجزية عن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جاييا . ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه . وأنا وأنت حرافان ناكل من كسب أيدينا .

وكان كل مساء يستمع الى حوائج الناس ويستعمل الشمع ، فاذا حدثه أحد في شأن من شئونه الخاصة دعا بسراج من بيته .

قيل وفد عليه يريد من بعض الآفاق فأنتهى الى بابه ليلا . واستأذن عليه فأذن له . ودعا بشمعة غليظة فاوقدت . وجعل يسأله عن أهل البلد حتى اذا فرغ عمر من مسألته قال له : يا أمير المؤمنين : كيف حالك في نفسك وبدنك وكيف عمالك . فنفخ عمر الشمعة فأطفأها وقال : يا غلام على بسراج . ثم قال له سل عما أحببت . يا عبد الله ان الشمعة التي رأيتني أطفأتها ، من مال الله ومال المسلمين فكانت تلك الشمعة توقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم . فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين .

وكان طعامه ملحاً وزيتاً . وعندما ولى الخلافة كانت غلته أربعين ألف دينار ولم تتجاوز عند وفاته مائتي دينار . قال مالك بن دينار : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد . انما الزاهد ابن عبد العزيز ، آتته الدنيا فتركها .

وكان يصلي صلاة وصفها أنس خادم رسول الله بقوله : ما صليت خلف امام بعد رسول الله أشبه بصلاة رسول الله من امامكم هذا .

ومن قوله : لست بقاض ولكنني منفذ . ولست بمبتدع ولكنني متبع . لست بخير من أحدكم . ولكنني أثقلكم حملا ، الا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقيل دخل على عبد الملك بن مروان يوما وكان معه بنوه . فقال له

عبد الملك وهو يومئذ الخليفة : كيف نفقتك ؟ قال عمر : الحسنه بين  
السيثين . قال عبد الملك فما هما . قال عمر : « والذين اذا أنفقوا لم  
يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

\*\*\*

آلت اليه الخلافه بكتاب من سليمان . فلما دفن سليمان نجى عنه  
حامل الحربه وذهب الى المسجد فخلع بيعة الناس وقال لهم انهم قد بايعوا  
دون مشوره . وأباح لهم أن يختاروا لانفسهم ، فصاح الناس « قد اخترناك  
يا امير المؤمنين » وجمع اليه صحابته والعلماء . وقال لهم : من اراد أن  
يصحبني فليصحبني بخمس . يدلني من العدل الى ما لا أهدى اليه .  
ويكون لى على الخير عونا . ويلفنى حاجة من لا يستطيع ابلاغها .  
ولا يقتاب عندي احدا . ويؤدى الامانة التى حملها منى ومن الناس .  
وعرف عمر بالبراعة واللباقة فى الحديث . وآية ذلك أنه جادل  
الحوارج وهم من هم فى الجدل فاقنهم فمأهده ان لا يخرجوا عليه .  
وفى أول عهده خرج شوذب الخارجى فكتب اليه عمر يقول :

بلغنى انك خرجت غضبا لله ورسوله . ولست أولى بذلك متى فهم  
الى اناظرك وان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس . وان كان  
فى يدك نظرنا .

فكتب الى عمر يقول : قد أنصفت . وقد بعثت اليك رجلين  
يدارسانك ويناظرانك .

وأرسل الى عمر مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصم . ورجلا من  
بنى يشكر وناقشهما عمر وسمع اليهما ، واستمعا له . وقال له عاصم :  
اشهد أنك على حق .

وقد مكن عمر من الفوز عليهما أنه كان عالما تلقى الفقه باكرا على أنس  
ابن مالك وجماعة من الصحابة . ومن ذلك قوله : لقد رأيتنى وأنا بالمدينة  
غلما مع الغلمان ثم تآقت نفسى الى العلم بالعربية والسفر فأصبحت منه  
حاجتى وما كنت أريد .

وقد ابطال عمر ما استحدث بعض خلفاء بنى أمية .

وعندما جاءته الوفاة رفض أن يكتب لابنائه شيئا . وجعل ذلك فى  
مقام ما فعل بالنسبة لقومه حتى أوقف ما كان يجرى عليهم من بيت المال .

ولم تطل أيام خلافته أكثر من عامين وخمسة اشهر ، ومات فى  
رجب عام ١٠١ هـ .

لو كان بيني وبين الناس شعرة : ما انقطعت أبدا : اذا شدوها  
ارخيها واذا أرخوها شددتها .

## معاوية بن أبي سفيان

قال ابن طباطبا يصف معاوية :

كان عاقلا في دنياه لبيبا . عالما حليما . مالكا قويا . جيد السياسة  
حسن التدبير بأمور الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحاً . بليغاً . يحلم في  
موضع الحلم . ويشدد في موضع الشدة الا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان  
كريما باذلا للمال محبا للرياسة شفوفا بها .

كان يفضل على اشراف رعيته كثيرا . فلا يزال اشراف قريش يفدون  
عليه بدمشق فيكرم مثنواهم . ويحسن قراهم . ويقضى حوائجهم . ولا  
يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجهونه أقبح الجبه . وهو يداعبهم تارة  
ويتغافل عنهم تارة أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية والصلوات  
الجميلة .

\*\*\*

ويروى السعودي أن معاوية كان اذا انفل من صلاة الصبح جلس  
الى القاص حتى يفرغ من قصصه . ثم يدخل فيفتح مصحفه ويقرأ ثم يدخل  
الى منزله فينظر في بعض أمره ثم يصلي أربع ركعات . وفي الضحى يخرج  
الى مجلسه فيأذن لحاضته فيحدثهم ويحدثونه ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه  
فيما يريدون من يومهم الى العشي . ثم يؤتى بالغداء الأصفر وهو فضلة  
من عشاءه من جدى بارد أو ما يشبهه . ثم يخرج كرسيه الى المسجد  
فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ويتقدم اليه الناس :  
الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له . فيقول ظلمت فيقول :  
أعزوه . ويقول : عدى على . فيقول : ابعثوا معه . ويقول صنع بى . فيقول :  
انظروا في أمره . حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير . فيقول :  
الذنوا للناس على قدر منازلهم . ولا يشغنى أحد عن رد السلام فيدخل  
الناس فيقول لهم ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا . ثم يتكلم الناس  
فاذا قيل استشهد فلان . يقول : افرضوا لولده . واذا قيل غاب فلان عن  
أهله . يقول : تعهدوهم واقضوا حوائجهم .

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه . فيمد يده  
فيأكل لقمتين أو ثلاثا . والكاتب يقرأ كتابه . ثم يرفع الغداء . وينصرف  
الى منزله فلا يطعم فيه طامع حتى يخرج فيصلى العصر . ثم يجلس على

سريره ويؤذن الناس على منازلهم . ويؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقداد ماينادى بالمغرب فيخرج فيصلها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة حسين ايه ، يجهز نارة ويختم أجرى . ثم يدخل منزله حتى ينادى للعشاء الاخرة فيخرج فيصل . ثم يؤذن للخاصة والوزراء والحامية فيؤامره الوزراء صدرا من ليبتهم ، ويستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وأيامها وملوكها وسياستها لرعيتهما . ثم تأتبه الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المأكّل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل . ثم يقوم فيقعد . فيحضر الدفاتر التى فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد . فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون .



لايستطيع أحد أن ينكر أن معاوية علم من أعلام الاسلام حفرا اسمه فى سجل التاريخ فقد أمضى أكثر من أربعين عاما يحكم الشام حاكما وخطيئة ومهما قيل عن أسلوبه ومرونته فانه لون من ألوان البطولة الاسلامية فى تطورها بعد النبوة وانتقالها من مرحلة الخلافة الراشدة التى تتمثل فى عمر وعلى الى مرحلة الملك والسلطان والحلاف بين شخصية على وشخصية معاوية، هو خلاف طبيعى . فليس فى تاريخ أى حقبة مهما تقاربت بطولات متماثلة . فان بين أبى بكر وعمر خلاف فى الأسلوب والطبيعة والشماثل بالرغم من انهما عاشا فى عهد واحد ، والتقى على معين واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم . اذن فلا بد أن يكون هناك خلاف فى اسلوب الحكم بين على ومعاوية .

فقد كان على يعيش فى صورة أبى بكر وعمر وهى صورة أربعين عاما مضت منذ انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى . أما معاوية فكان يعيش فى الواقع . فى الزمن الذى تطور بعد أن اذن عثمان لكبار الضخابة يسيحون فى الأرض ويكونون الثروات .

ولم يكن بين على ومعاوية هزائم وانتصارات ، وانما هو ناموس الحياة الذى لا يتخلف فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان طلاب منفعة وسلطان ، فاذا أراد لهم على أن يعودوا مرة أخرى الى زمن عصرى كان ذلك عسيرا . وكان كل من حول على يطعمون فى السلطان والملك وعلى لا يرفيد الا نماذج معينة من أهل العدل مما حول أصحابه الى خصوم . انتقلوا من معسكره الى معسكر معاوية فأعطاهم . اما معاوية فكان يقطع الألسنة بالعطاء ويرد الخصوم بالهبات . ومع ذلك فقد ظل شأن الناس معه على حد قول القائل : قلوبهم مع على وسيوفهم مع معاوية .

ويصور معاوية عوامل انتصاره على على فى قوله : أعنت على على ، بأربع خصال كان رجلا لا يكتفى سرا وكنت كنتموا لسرى . وكان يسعى حتى يفاجاه الأمر مفاجأة . وكنت أبادر الى ذلك . وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه .



ولعل أبرز صور معاوية فى فهمه العميق للأمور ، ومسايرته للزمن، ويقظته وتطوره وقبرته على الجرى مع الأحداث، ومواجهة الواقع ماروي عن

لقائه مع عمر بن الخطاب عندما قصد الى بيت المقدس لتسليمه من الرومان .  
لما قدم عمر بن الخطاب تلقاه معاوية في موكب عظيم . فلما دنا منه  
قال له : انت صاحب الموكب العظيم .  
قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : مع ما ييلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك .  
قال نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير . فيجب أن نظهر من  
عز السلطان مانرهم به . فان أمرتنى فعلت وإن نهيتنى انتهيت .  
قال عمر لمعاوية : ما سألتك عن شيء الا تركتنى فى مثل رواجب  
الفرس ان كل ما قلت حقا ، فانه لراى اريب . وإن لم يكن فهو خدعة  
أديب .

قال : فمرنى يا أمير المؤمنين . قال : لا أمرك ولا انهاك .



والحق أن معاوية أوتى شخصية بارعة غاية البراعة وصفها هو فى  
قوله :

كانما بينى وبين الناس شعرة : اذا شدوها ارخيتها . واذا ارخوها  
شدتها . ولقد كان معاوية يستلهم ما يسمى بالعرفه النفسية ومدخل القلوب  
يعرف مقاتل الناس والنقمة التى يحبونها . ويستعمل ذكاه على اوسع  
نطاق فى كسب القلوب . وقد كان للمال - ولا يزال - سحر خطير فى  
ذهاب الخصومات واحلال الود محل البغض . ولم تكن عاطفة القلوب  
المجردة لتكفى الناس فى ذلك الزمن الذى تفتت فيه المطامع .

وقد استطاع معاوية بأسلوبه وحكمته ومرونته أن يوطد الملك لبنى  
أمية اكثر من مائة عام . وكان يقتسم السلطة بينه وبين حكامه . فيقول  
لزياد والى العراق : لا ينبغي ان تسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا  
مقام رجل واحد . ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرفاة  
والرحمة فيستريح الناس بيننا .

وكان ينخدع أحيانا للناس حتى يرى كأنه مصدق لما يقولون . وذلك  
كسبا لقلوبهم . وقد جاءه رجل من الكوفة . فقال له : ان داره قد حرقها  
واليه عبد الرحمن بن الحكم . وانها بمائة ألف درهم . وشهد له بذلك  
شيخ آخر فأمر له بها . فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم :

أى الشيخين عندكم أكذب ؟

والله انى لأعرف داره . وما هى الا خصائص قصب . ولكنهم يقولون  
فنسمع ويخادعوننا فننخدع .

وقد استمال بدعائه الداهية الأخير : عمرو بن العاص - وكانت  
الصلة بينهما على أساس المنفعة . وقد منحته هذه الكياسة والمرونة عشرين



عاما قضاها في الولاية قبل الخلافة في دمشق فاستتب له الأمر ، وتمكن من القلوب .

وهو أول من اتخذ الحرس والحجاب والقصور . وحول الخلافة الى ملك وجعل ولاية العهد مشروعة من غير انتخاب . وأخذ البيعة قسرا لابنه يزيد .

وصفه عمر بقوله : فتى من قريش يضحك في الغضب ولا ينال ماعنده الا على الرضى . ولا يأخذ مافوق رأسه الا من تحت قدميه .

وقد عرف عن معاوية : انه كان جميل الصورة . حللو الحديث . هادى السمة أنيقا . لايفضب مهما حاول محدنه أغضابه . لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ولا يضع سوطه حيث يكفيه لسانه . وقد اتخذ كل وسيلة الى توطيد ملكه وساطتانه . وكانت شربة المسل التي يقدمها قضاء على خصمه حتى عرف عنه قوله : « ان لله جنودا منها المسل » . ومن قوله : عجبت لمن يطلب أمرا بالقلبة وهو يقدر عليه بالحجة .



وقد واصل معاوية بعوث الجهاد والفتوح فبعث عبد الله بن سوار الى بلاد السند فيما يلي خراسان . ووصل المهلب بن أبي صفرة الى لاهور . وغزا الدولة الرومانية برا وبحرا . وبلغ أسطوله ألفا وستمائة سفينة فتح بها رودوس وبعض الجزر اليونانية . وأرسل الشمواتي والصوائف لحصار القسطنطينية وكان على رأس واحدة منها وأرسل عقبة ابن نافع لفتح إفريقية .

وقد جدد شباب الدولة الإسلامية وأعانته حكمته وذكاءه وتجاربه وقراءاته على أن يدير الملك ويرضى الناس ويحسن التصرف .

وقد توفي معاوية عن ثمان وسبعين سنة وأمضى تسعة عشر عاما خليفة وتوفي عام ٦٠ هـ .

« اياك والتبذير فان التوائب غير مأمونة • والحوادث غير مضمونة •  
وهي من شيم الزمان » •

## أبو جعفر المنصور

ما أخرجني الى أن يكون على بابي أربعة نفر • لا يكون على بابي اعف منهم • قيل له من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم • كما أن السرير لا يصلح الا بأربع فوائم أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي • والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية • فاني عن ظلمها غني • والرابع ثم عض على اصبعه السبابة - ثلاث مرات يقول في كل مرة آه • آه • فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب يريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة •

\*\*\*

أبو جعفر المنصور : ثاني الخلفاء العباسيين • وألع الرجال الذين حملوا على أكتافهم الحركة التي أطلق عليها «الرضا من آل محمد» والتي كانت تهدف الى التخلص من حكم الامويين • والذين تحقق لهم فيما بعد أن يقيموا هذا السلطان الجديد • وان يشترك فيها بجهد ضخم بارز لا يمكن أن ينسى حين يذكر سلطان العباسيين فقد حكم اثنين وعشرين عاما • وطد خلالها الملك لاولاده واحفاده • وقضى على خصوم الدولة وبني المدن وأشبأ القصور • وجمع المال • وقد عرف المنصور بالرجولة القوية القاسية التي لاتعرف اللهو • ولا الترف • وكان أسمر اللون نحيفا خفيف العارضين • وقورا يلبس الحشن من الثياب • حسن الخلق في الخلوة • ومن أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح • فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه • واحمرت عيناه • وتغيرت أوصافه • حتى لقد روى عنه أنه قال لبنيه : « اذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت الى المجلس فلا يدنون أحد مني مخافة أن أصيبه بشيء » •

لقد كان بخيلا لا يبسط يده بدينهم واحد في غير موضع • وكان يحاسب رجاله على المال القليل والوفير • حتى سمي «أبو الدوانيق» مؤمنا بأن من قل ماله قل رجاله وقوى عليه عدوه • وكان لا يعطي الا اذا كان في العطاء رجاء وقد مكنته طبيعته هذه الجادة الصارمة من بناء الدولة الجديدة وأعانته على ذلك الزمن الطويل الذي عاشه، وأعطته صحته واستقامته هذا العمل الطويل فقد كان يكره المحرمات ، مفلوما عن الشهوات • ولم يعرف عنه ما عرف عن خلفاء بني أمية ولا خلفاء بني العباس ولا ما عرف عن أحفاده الهادي والرشيد والمأمون من نزوات ومطامع ورغبات في الترف واللهو •

وكان يعمل وقته كله حتى أرق نفسه وأرق من حوله ، الى أن أغروا طبيبه أن يشير عليه بشرب النبيذ دواء وعلاجاً . عسى أن يشغله الشراب عنهم . فما لبث المنصور بعد يومين أن أحس تناقلاً عن الضلالة فلما أصبح دعا بما عنده من شراب فأمر بإرافته . ثم قال : لا ينبغي لمثلى أن يشرب شيئاً يشغله ، وهذه الصورة تبرز خلقاً من خلق المنصور هو قوة ارادته الضخمة التي دفعته الى أن يصرف نفسه عن الشيء ولا يدعه يؤثر فيه أو يفرض عليه .



كان شغوفاً بالبناء ، يرى بناء الدولة من بناء العمارة . وله ذوق رفيع اعترف به كل من شاهد أو سمع أو قرأ تفاصيل النظام الذي رسمه لبناء بغداد وقصر الخلد والقبة الخضراء . وبنى الرصافة لابنه وبنى الثكنات .

وكان يقف بنفسه من الصباح الباكر الى المساء المتأخر ، لا يجهد ولا يضييق بالملاحظة والأمر . ولم يقف أياماً ، وإنما وقف شهوراً . لأنه كان يبني مدينة ضخمة هي بغداد .

وقد أعانته على ذلك انقطاعه عن الشهوات . وقوة ارادته . وصلابة بنيانه وايتاراه الحشن من الطعام واللباس . وكان ورعاً ، يقوم الليل . ويسبح الوضوء ويصلي ماشاء الله أن يصلي .



وقد وصف المؤرخون يومه بأنه كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف . فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف وشاور سماره .

فإذا مضى ثلث الليل قام من فراشه فأسبغ وضوءه وأقام في محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في ايوانه . وقد أحب التنقل ، وزار أغلب انحاء الامبراطورية في آسيا ، ذهب الى خراسان وفلسطين والشام وتعددت زيارته الى مكة .

وقد ضرب المثل بحكمته وحرصه على المال ، حتى انه رأى في داره قنديلاً معلقاً وكان الموضع بين الضوء والظلمة . فأمر بأن يطفأ . وقال لا يعاد هذا المصباح الى هذا الموضع الا وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار .

وكان حريصاً على تحرى العدل في الحكم راغباً في أن يصل الى ضمائر الرعية لدفع الظلم عنها .

وقد عرف بضبط النفس والقدرة على مواجهة خصومه . فقد روى عنه انه وقف يخطب فقام رجل ، وقال يا أمير المؤمنين : اذكر من أعنت في ذكره فقال له مرحباً : لقد ذكرت جليلاً وحذفت عظيماً . وأعوذ بالله أن

أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والموعظة منا بدت ، ومن عندنا خرجت ، وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت . انما أردت أن يقال قام فقال ، فعوقب بضر ماخوذاً بها . وملك وإياكم معشر الناس وأمثالها .

### \*\*\*

ولى الخلافة بعد وفاة العباس فوطد الملك وقاوم العلويين وردهم وحاربهم وقد مهد بذلك لابنه المهدي وقد ترك له الأموال المصادرة وأوصاه بردها الى أصحابها ليكسب مودتهم .

وقد اعتل المنصور وهو فى طريقه الى الحج . ومات قبل أن يبلغ مكة وقيل أن الفرس كبا به فوق ظهره ودفن ببنر ميمون .

هذه اللوحات النفسية للمنصور فى بعض تصرفاته وشماله تعطى صورة الرجل القوى الثابت القلب . وهو الرجل الذى قتل أباً مسلم الخراسانى بعد أن رأى أنه ينافسه سلطانه وأن الدولة لا يقوم فيها سلطانان . ولا شك أن قتله لأبى مسلم رمز على دهائه المضخم البالغ ، فقد كان يعرف مقامه بين جنوده ، وكان اسمه الملع من اسم المنصور ، وهو الذى وطد لهم الدولة وقام بالانقلاب الذى أودى بالدولة الأموية .

وقد خشيه أبو العباس فى خلال فترة حكمه القصير . فلما ولى الحكم أبو جعفر المنصور قطع فى الأمر وتحرر منه . وذلك بعد أن قذف به فى نحور العدو حتى يخلص منه أو من عدوه الآخر فلما خلصه من أعدائه قضى عليه وألقى برأسه مع الذهب لجنوده .

ومن يطلب لنفسك أو يرد

فى الحرمین أو أقصى الثغور

## هارون الرشيد

عندما أوقع الرشيد بالبرامكة ، وقتل جعفرا وسجن أباه وأخوته وصادر أموالهم حاولت فاطمة زوجة يحيى ، وهى التى أرضعته وربته أن تلقاه ، فأبى الرشيد مقابلتها مع أنه كان قد قطع على نفسه وعدا ألا يحجبها قط وما استشفعته فى أحد إلا شفعا ، فلما طال بها الالتماس • خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية فى مشيتها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب • فقال : ظنر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد •

فقال الرشيد : ويحك يا عبد الله : أو ساعية ؟ قال نعم حافية •

قال : ادخلها يا عبد الملك فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها •

فدخلت فلما نظر اليها الرشيد داخله محتفية قام محتفيا حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها • ومواضع ثدييها • ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين •• أيعدو علينا الزمان • ويجفونا خوفا لك الاعوان • ويحردك بنا البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى وأخذت برضاعك الامان من عدوى ودهرى ؟

فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟

قالت : ظنرك يحيى وأبوك بعد أبيك • ولا أصغه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين فى نصيحته ، واشفاقه عليه وتمرضه للحتف فى شأن موسى أخيه •

فقال لها : يا أم الرشيد •• امر سبق •• وقضاء حم •• وغضب من الله نفل •

قالت : يا أمير المؤمنين ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب •

قال : صدقت ، فهذا ما لم يمح الله •

تلك هى نهاية القصة فاذا أدركنا عقارب الساعة الى الوراء سبعة عشر عاما • كان ذلك ذات ليلة ، وهارون بن المهدي فى قصر بعيد عن بغداد مسيرة يوم ، خائفا يترقب ، عندما دخل عليه فى جوف الليل ، شيخ وقور ، كان قد ربي الأمير ، ذلك هو يحيى البرمكى الذى مالبث أن أبغض هارون وقال له : قم يا أمير المؤمنين ••

فقال الرشيد : كم تروعنى اعجابا منك بخلافتى . وأنت تعلم حالى  
عند هذا الرجل — يعنى الهادى — فان بلغه هذا فما تكون حالى ؟  
قال له يحيى : هذا خاتم الملك .

هنالك علم الرشيد أن أمور الملك قد أُلقيت اليه . ولم يلبث أن قال  
ليحيى بن برمك : أشر على . . ثم لبس ثيابه وصلى وترك «عياذ» وولى  
وجهه شطر بغداد وقلد الرشيد يحيى بن خالد البرمكى الوزارة . وقال له :  
قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى اليك فأحكم فى ذلك بما ترى من  
الصواب ، واستعمل من رأيت ، وأعزل من رأيت ، وامضى الأمور على  
ما ترى .

ودفع اليه خاتمه .

\*\*\*

ومضت الأيام . . وتوطدت أواصر الحب بينه وبين جعفر ، حتى بلغ  
ذلك مبلغه من الخيال فقبل انهما كانا يدخلان جلابيا واحدا ، وإن جعفر  
كان يقضى فى أدق الأمور دون أن يرجع الى الرشيد .

ونظر الرشيد ذات يوم من نافذة قصره على نهر دجلة فرأى قصر  
البرامكة على الجانب الآخر ، والزحام حوله شديد والحيول تصهل والارض  
تعج بالناس وليس أمام قصره شيء هنالك تنبه الرشيد الى أمر سلطانه  
الذى أوشك على الضياع . . ثم توالى الارهاصات والأحداث . كان يطلب  
المال فلا يصل اليه . . وظفر الرشيد باعتقال يحيى بن عبد الله الزعيم  
العلوى على أثر انهيار ثورته فى بلاد الديلم وعهد به الى جعفر البرمكى  
ليسهر على اعتقاله فأطلق جعفر سراحه خفية .

وقال ابن خلدون : «انما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم بالدولة  
واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل  
اليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور  
ملكه فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططوها  
بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدمهم نواشى الغيرة والاستنكاف  
من الحجر والأنفة وكامن الحقوق التى بعثتها منهم صفائر الدالة !!!  
وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كباثر المخالفات كقصتهم فى يحيى بن  
عبد الله . . .

وبلغت خشية الرشيد غايتها عندما علم أن جعفر يقول فى مجالسه :  
ليست البطولة هى بطولة أبى مسلم الذى نقل الدولة بعد أن قتل الآلوف  
المؤلفة ، ولكن البطولة هى نقل الدولة من غير اراقة قطرة دم .

وأحس الرشيد أن البرامكة يريدون نقل الملك الى العلويين .

وكان الصراع بين وزير الرشيد : الفضل بن الربيع وزوجه السيدة  
زبيدة ، وهما العربيان وبين البرامكة الفارسيين . وزاد هذا الخلاف  
حدة وجود ابنى الرشيد : الأمين بن زبيدة والمأمون بن مراحىل الفارسية .

ولم يثبت الرشيد أن صمم على الإيقاع بالبرامكة عام ١٨٧ . وقد أنفذ أمره في ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بانزالها واحراقها .

### \* \*

وذلك أبلغ حدث في حياة الرشيد الذي ظل مرتبطا بتاريخه وحياته إلى أن قضى ولا شك أن « هارون الرشيد » يقف على رأس انقصة التي بلغت الدولة العباسية ، بل التي بلغها تاريخ الإمبراطورية الإسلامية كلها .

هذا المجد الذي لم يلبث طويلا بعد ذلك . والذي كان خلال عهد المأمون امتدادا للدفعة القوية التي بلغها الملك في عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذي روى عنه أنه قال للسحابة المسارة : « امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

وقد اختلف المؤرخون حول الرشيد اختلافا شديدا . فذهب بعضهم إلى أنه كان يصلي مائة ركعة كل يوم . وأنه كان يتصدق بمائة ألف درهم وأنه كان يحج عاما ويفزو عاما ، وذهب البعض الآخر إلى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص من ألف ليلة ، وأنه كان مرحا طروباً يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وأنه كان يقضى أغلب وقته بين الغناء والموسيقى والمغنيات والقيان .

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعدتين اللتين تجمعهما دلالة الشخص القوي الحيوية ، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة . وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هذا من أن يعيش هاتين الحياتين معا ، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما قريبان جدا ، يلتقيان دائما إذا بعدت عنهما مبالغات القصص وأحاجي الرواة ، وليس على الرشيد من بأس أن يعقد مجالسه فيستمع إلى السمر والغناء والموسيقى ، ولا يمنعه ذلك من أن يصلي لله مائة ركعة ، وأن يمضي إلى الحج عاما والفزو عاما . وكان يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضيرى أكلت مع الرشيد فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي أيا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت لا يا أمير المؤمنين . قال أنا فقلت يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا اجلالا للعلم ؟ قال نعم .

وكل وقائع حياة الرشيد التي بين أيدينا . تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجدة فقد حفلت حياته القصيرة بالفزو والجهاد فما كان ينتهي من غزوة حتى يقترح أخرى . . كذلك كان منذ شبابه الغض إلى اليوم الأخير من حياته .

وأبرز مظاهر حياته أنه رجل حرب وقاتل . . اشربت روحه الجهاد . وقيادة الجيوش ونضال العدو . وكانت أغلب غزواته في أرض الدولة البيزنطية . فلما ولي الملك نظم الشواتي والصوائف . وحرض على إرسالها ثم خرج بنفسه إلى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ومنعوا الجزية .

وكان حفيا بمواجهة الخصوم والأعداء لا يهدأ ولا يستريح الا لنصر  
يكسبه من وراء نصر . فلا يلبث أن ينتهى من صراع الأعداء على حدود  
الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو  
هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك .

هو فى هذا كله صلب العزيمة ، قوى العود ، غاية فى البسالة  
والحيوية ، وهى صفات لاتضع صاحبها فى صف المتقطعين للهوى أو العاكفين  
على الهوى .

وفى هذا يقول الشاعر :

ومن يطلب لقاءك أو يردده ففى الحرمين أو أقصى الشفور

\*\*\*

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة ، فى أوضح صورها وأقواها  
حين استبان له غدر البرامكة ، فصرعهم فى ليلة واحدة ، وفق أسلوب غاية  
فى الجرافة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعاة أى شفاعاة . . حتى شفاعاة  
ظنره التى أريضته . . وربته . . وكانت عنده شفاعاة لاترد لها شفاعاة .

وليس شك أن هذا التصرف الجرىء الحاسم مع البرامكة ، بعد أن  
أطلق أيديهم فى أمور الملك سبعة عشر عاما ، حتى بلغوا مكانا عاليا . .  
واستطاعوا أسهمهم ، وعلا صيتهم وفى الوقت الذى كان يعلم أنهم هم الذين  
أبلغوه الملك ، ومكنوا له فيه لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد . قوة  
تزرى بما عرف عن جسده المنصور . وإن ظلت نفس الرشيد تحتفظ  
بطابعها الخالص من السماحة والركة واللين والمرح والاشراق .

وآية هذا الذى نذهب الى القول به فى نفسية الرشيد أنه فى رحلته  
الآخيرة الى خراسان حمل اليه أحد الخوارج . وكان فى أشد حالات المرض  
بل وفى سكرات الموت ومع ذلك أمر بقتله أمامه . وظل يملأ نظره من دمه  
المهدور وهو مسجى على وشك أن يبلغ غاية الأجل من علته .

\*\*\*

وكان الرشيد خلال حياته التى لم تتجاوز الخامسة والأربعين ، حامل  
لواء الحضارة الإسلامية فى الشرق - بالإضافة الى منصبه كخليفة  
للالامبراطورية - فقد احتضن الثقافة والفن ، وشجع رجال الشعر والموسيقى  
والغناء . وأفسح لهم ومكنهم من الابتكار والتجديد والابداع ، وعنى بالتأليف  
وأغان الفقهاء . وفتح لهم أبواب البحث والقضاء . وعقد لهم مجالس  
البحث والمساجلة والمناقشة فى مختلف المسائل .

وقد اتصل بشارلمان حاكم فرنسا وجرمانيا وإيطاليا ، وأرسل  
اليه وفدا وأهدى اليه مفاتيح بيت المقدس علامة على الود بين الشرق والغرب  
وبين الاسلام والمسيحية .

ثلاث نجوم كانت تدور فى فلك الرشيد .



أمه الخيزان ، وزوجه زبيدة ، ووزيره جعفر .

أما الخيزان فقد كرهت الهادي لانه كان يصرفها عما تبغى من مظاهر السلطة والنقوذ ، أما الرشيد فقد أباح لها ماتشاه منه ، واليه يرجع بعض الفضل فى أن يقفز الى الخلافة قبل أن يجيء دوره فى ترتيب الولاية وولاية العهد .

وأما زبيدة فزوجه الأولى التى كان يؤثرها على كل زوجاته وسرايره وجواريه وهى أم المؤمنين . وكانت ذات رأى وتدبير ، فكان الرشيد لا يرى بدا من أن يأخذ بمشورتها وأن يطلق يدها فى انشاء القصور . وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها .

أما جعفر فكان محببا الى نفسه غاية الحب ، حتى لقد روى بعض المؤرخين انهما كانا يدخلان فى ثوب واحد ، وهو ان قيل على أنه ضرب من المجاز فانه يصور مدى ماكان بينهما من الحب الصادق والود الاكيد .

وروى أن جعفرا تصرف باسم الرشيد فى أمور غاية فى الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضى عنه . ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عندما قضى فيه الرشيد بأمره .

وتلك شميلة من شمائل الرجل الفذ . تثبت فى وضوح قوة عارضته ولو كان كما روى عنه من الاسراف فى الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة فى الوقت المناسب .

فاذا أخذ عليه بعد ذلك انه بايع للأمين بولاية العهد . والمأمون بخراسان وللقاسم بولاية العهد بعد المأمون فى عقد واحد . وكان هذا الذى فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده . وهذا خطأ من أخطاء الصاطفة المتحمسة والعقل الراغب فى حسم الامور الذى يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه وارادته . وهو أشبه بما قيل عن رضائه عن صداقة جعفر والعباسة . وجمعهما فى حضرته وانفاذ أمره بزواجهما دون أن يلتقيا كما يلتقى الأزواج .

فاذا صح ماذهبنا اليه من أمر الرشيد الذى عاش حياته مقسما اياها بين الحرب والحج ، ومغالبة الأعداء والخصوم من الروم والعلويين والبرامكة فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية من أن يرد موارد المتاع بالسمو ومجالس الطرب . فذلك يتمشى مع طابعه ولا يتعارض معه بحال من الأحوال .

وقد أداه طبعه السياسى الواضح هذا الى أن يرسم الخطط للأمور التى يمكن أن تقع بعد عهد طويل ، ولا بأس عليه من أن يخطئ خطأ المجتهدين لاخطأ الجامدين فى أن ينظم ملكه من بعده على صورة مبايعة طويلة المدى لأولاده أو أن يقتل الخارجى وهو على وشك الموت .

\*\*\*

ولا شك أن تصرفه فى كسب صداقة شارلمان ، واهدائه اياه مفاتيح

بيت المقدس هو من وعيه السياسى النابه الذى أراد به أن يحول بين عاديه الصراع بين الشرق والغرب وهو ما امتحنت به المملكة الاسلاميه من بعد .

وجملة القول : ان الرشيد كان من أبرع ساسة الشرق ، وخلفاء الاسلام . وانه لم يكن بالمترف اللين الناعم كما صوره صاحب الأغاني . أو كتاب ألف ليلة . ولكنه كان قاسيا جبارا . فيه روح المجاهد المحارب . وعاطفة الشباب الفوار الذى لايرضى الهزيمة والذى يتعقب خصومه ويفتك بهم . والذى يحب مجالس العلم والفن ويلقاها مبتسما طلقا ، وان طوى النفس على عزيمة ماضية تبرز فى قوة حين يتصل الأمر بشخصه أو سلطانه .

ومن قول القاضى الفاضل : ما علم أن الملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد فانه رحل لسماع الموطن من مالك فى المدينة وكان من حوله دائما أبرز رجال العلم فى مقدمتهم الأخمصى وأبو عبيدة والكسائى والواقدى وأبو يوسف ومروان بن أبى حفصه وأبو العتاهية ، مات عام ١٩٣ .

\* أيام السرور في حياتي أربعة عشر يوما \*

## عبدالرحمن الناصر

شخصية باهرة بجوانبها المتعددة ، وطبيعتها الواسعة الأفق ، ونفسياتها العميقة الغور . وعرف بالوسامة والطلاقة وحسن السمات وكرم الخلق وقوة الإدراك .

وصف بأنه أبيض أشبهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم . أحبه الناس . وعشيقته الجماهير لهيبته ولسماحة نفسه ، ولخلال فيه أبرزها الوفاء والرعاية والبطولة .

ولى الحكم في سن الحادية والعشرين . وأعاد مجد الأندلس بعد أن أوشك على الانتقاض . وكان لشجاعته وشبابه وفروسيته أبعد الأثر في حب الجيش له وتعلقه به فقد كان مقداما شجاعا مقعم النفس بالحماسة لاستعادة مجد العرب وعظمة المسلمين ، ينطلق في مقدمة جنده ، يلهب أعصابهم ويملا أرواحهم بالحماسة والایمان فينقضون انقضاض الشهب ويندفعون اندفاع القضاء الغلاب .

وقد دانت له مدن الأندلس واحدة بعد أخرى ، وفتحت له أبوابها صاغرة وأذعنت له قرطبة واشبيلية واطاعته البربر ، وأعلن موقفه في صراحة : انه لايقبل الشقاق وتمكن بقوة عارضته أن يدعو رؤساء القبائل الى الوحدة ، وان يمسح بالحزم والحكمة على القلوب ، فلم يسمح بأى عصيان ورفض أن ينزل عن أى جزء من مملكته .

وهو - في خلال معاركه - رحيم بالناس رفيق ، لا يدع جنده المائتة من مآثم الفتح وقد مكنت له هذه الخلال فاستطاع أن ينفذ الى مرسية وأن يهاجم طليطلة ، وأناحت له قوة شخصيته أن يعيد ماضيه اسلافه في خلال ثمانية عشر عاما قبل ولايته .

وقد توالى حروبه وفتوحه وانتفاضات الأعداء له . فكان يواصل الغزو ولا يدع لهم الفرصة ليحرزوا أى غنم أو نصر ويعاود بعث حملاته للاستيلاء على الحصون والمعازل ومطاردة الثوار دون أن يلجأ الى القسوة ، ومع اتباع أسلوب الرفق والتسامح حتى لقد قبل من العصاة طاعتهم . . وأبدى نحو النصارى الذين أذعنوا للطاعة كرما وتسامحا مما سجله المؤرخون الأوروبيون وفي مقدمتهم دوزى .

وعندما ظهرت المجاعة عام ٩١٥ هـ بالأندلس قاومها ببراعة وبذل المعونة والغوث لشعبه ووزع المؤن والصدقات الوفيرة . ولطف المنحة ، وظل الى ذلك يقظا قويا يرقب حركات الثوار في حذر وأهبة . ثم سبى قواته مرة أخرى لقمع الثورة حتى مات زعيم الثورة عمر بن حفصون في غرب الأندلس .

وقد امضى اربعة اعوام كاملة يفزروهم حتى انتهى الامر بسحقهم والاستيلاء على قواعدهم نهائيا عام ٩٢٨ هـ ولم يدع الثوار في الجهات الاخرى فسار الى المناطق النصرانية فادال منها وعاد مثقلا بالكناسم والسبي واخضع الطوائف واقتحم حدود ليون وزحف على « سموره » وكانت غاية في المناعة تحيط بها سبعة اسوار شاهقة وكان بين الاسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ..

\*..\*

وعندما استولى على حصن « بيشتر » وقف على مشارف الحصن . ونظر من بعده الشاهق الى القمم الشديدة الانحدار التي تحيط به . وامتلات روحه عاطفة واهتزت نفسه فلم يلبث أن سجد لله شكرا .

وعندما ضعف مركز الخلفاء في المشرق دعا لنفسه بالخلافة فأمضى ثلاثين عاما يحمل لواء الخلافة . وقد استتب له الأمر ، واستقرت الأحوال ودخل الأندلس عهد من عهود السلام واهضارة ، مكن له أن يؤدي رسالته كمنار للهضارة في عصر عمت فيه الظلمات أوروبا . وكان لحكمة عبد الرحمن وعظمة شخصيته أبعد الأثر في هذا الدور الخطير حين استطاع أن يدعم الصلات بين العرب والبربر والاسبان والمسلمين ومدعى الاسلام .

وقد بلغ من عزة الملك ورفعة السلطان بالأندلس ان كانت ملوك الفرنجة والروم تتقرب اليه تطلب مهادنته وتهدي اليه أنفس الذخائر ومن جمعهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية فقد رغب في موادعته وبعث اليه عام ٣٣٨ وفدا من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدومهم احتفالا رائعا أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة ملكه وعظيم سلطانه وتصف ما تهبأ من توطيد الخلافة في دولته .

وكان الناصر قوى الشخصية جمع كل سلطة في الدولة واستأثر بمقائيد الحكم في يده وقاوم كل من حدثته نفسه أن ينتقض عليه أو يحاول الحد من سلطانه ، وقد قتل ولده عندما علم أنه يتآمر عليه . وأعدم كل من اتجهت اليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان أبلغ حرصه على اصلاح الجيش وحشد الجند من سائر انحاء اسبانيا والمغرب مستكثرا من الأسلحة والذخائر .

وقد أعجب بشخصية عبد الرحمن كل من عرفه واتصل به . وكان عبد الرحمن الى هذا المظهر الجاد والفروسية في الحرب والحكمة في الادارة والبراعة في الحكم والمرونة في السياسة انسانا يحب له قلب يخفق وعاطفة رقيقة تضطرم بالحنان والأشواق .

وقصة حبه لزوجته « الزهراء » رمز على هذه النفس التي احبت فاستجابت لمن تحب ، فقد طلبت اليه الزهراء أن يبنى مدينة باسمها فيبنى مدينة الزهراء . فكان لها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه . وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الذهب وبنافورته تمثال عجيب أهدها اليه ملك الروم وفي وسط البهو حوض مليء بالزئبق الرجراج . والى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس قد رصعت بالجواهر . فاذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز

الزئبق ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق حتى لقد يحجب الحاضرون عيونهم بأيديهم من شدته .

وقد حشد الناصر لمدينة الزهراء أمهر الصناع وجلب لها الرخام الأبيض والأخضر والوردى من قرطاجنة وتونس والشام وقسطنطينية وكان يشتغل فى بنائها خمسة آلاف رجل وتكلف ثلثمائة ألف دينار كل عام فى مدى خمسة وعشرين عاما . وقد أنشأ مسجدا عظيما م بناؤه فى ثمانية وأربعين يوما . عمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع .

وقد نمت قرطبة فى أيامه ، حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف . ومساجدها ثلاثة آلاف مسجد وحماماتها ثلثمائة وضواحيها ثمانية وعشرون .

وزاد انخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والامن . وبلغت الجباية فى عهده خمسة آلاف ألف واربعمائة ألف وثمانية ألف دينار . وخلف عند وفاته فى بيوت المال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف مليون دينار . وقد حال ثلث الجباية للجيش ، وثلثه للبناء والمنشآت العامة وثلثا للطوارئ .

وقال البغدادي انه كان أغنى ملوك عصره .

وقد ترك عبد الرحمن من البنين أحد عشر ولدا . وقد سأل عن البناء الضخم فقال : انه أراد به مواجهة الفرنجة بمظاهر اشد قوة ليكون ملك المستلمين أشد هيبه ومكانة ولكن الناصر لم يكن الى ذلك سعيدا كل السعادة بالرغم من العمر المديد والنصر المؤزر والحب الموفق والسلام الذى عاشت فيه الأندلس خلال حكمه .

يقول ابن خلدون « وجد بخط الناصر رحمه الله ان أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ويوم كذا من شهر كذا من ستة كذا . وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما . »

فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وتحايها بكمال الأحوال لأوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضرب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام . ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسيحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو . . .

وقد برع الناصر فى النحو والشعر والتاريخ . ومهر فى فنون الفروسية شجاعة واقداما فى المعارك التى اشترك بها وكان عالما أديبا بهوى الشعر ويقرب الأدباء وكان له شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . .

يقول دوزى ان عبقريته الشاملة التى تدعو انى الإعجاب لم يصرفها نحو الصفائر بل كما تدعو اليه أسى الأمور .

وقد مات سنة ٩٦١ م - ٣٥٠ هـ عن واحد وسبعين عاما حكم منها أكثر من خمسين عاما وهو أطول حكم لخليفة مسلم .

\* ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية

## الحاجب المنصور

يبهر « محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري » من يطالع تاريخه بتلك العصامية وذلك الصمود للاحداث والثبات وقوة العزيمة . فقد تطلع الى المجد . وهو شاب مغمور وظل يعمل بقوة ويزيح من طريقه العقبات والصخور حتى أصبح بعد كفاح طويل الحاكم الاول للاندلس كلها .

ولكن أسلوب الحاجب المنصور لم يكن أسلوبا مثاليسا ولكنه كان أسلوب السياسيين بما فيه من مكاييد فعلية ومؤامرات ودسائس ورغبة في الوصول الى الغاية ايا كانت الوسيلة وقد عرف بالقسوة والصرامة في تحطيم خصومه وتمزيق منافسيه .

كان في أول شبابه طالبا مغمورا بجامعة قرطبة . وقد نشأ في بيت فقه وعلم وكان حسن الأسلوب جيد الكتابة . ويقول المقرئ في نفع الطبيب : « قالوا انه كان يجلس في دكان عند باب الفصر ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان الى أن طلبت « صبح » من يكتب عنها فعرفها به من كان يانس الجلوس اليه من فتيان العصر فاستحسننت كتابته وعينته أمينا لبعض شئونها » .

وكان يكتب الرسائل لخدم القصر وقد وثق بذلك علاقته بكبير الحجاب الذي رأى فيه براعة وتفننا .

وقد أعجبت به صبح أم المؤيد وزوج الخليفة هشام التي أحبته ، وكان جبهما بعيد الاثر في التطور الخطير الذي ظل المنصور يقطع به المراحل حتى بلغ أكبر منصب في الدولة .

وقد وصل بأنه كان يقضى ليله مكبا على الفكر والبحث والتأمل . وبين يديه دواته وقلمه وورقه . يكتب ما يعن له من خواطر وآراء . ويظل هكذا حتى قبيل الفجر فيهجع ساعة ثم يقوم للصلاة .

قال له شعلة : لقد افطرت مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو يعلم ان السهر يحرك عليه العصب عنده . فقال له ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية . وانه لو استوفى نومه لما كان في دور هذا البلد عين نائمة .

كان شديد الثقة بنفسه . عميق الفهم لغرضه . فيه عزيمة واعتداد . وسيم المحيا طموحا مضطرم العزيمة . عين مشرفا لادارة أملاك عبد الرحمن

ابن الحكم - عين براتب قدره خمسة عشر دينارا في الشهر . ثم اضيف اليه النظر على الخزانة العامة ثم عين للنظر في خطة الموارث فقاضيا لكورة اشبيليه .

وقد افتن في خدمة صبح وارضائها . وقدم لها فنسونا من الهدايا والوانا من التحف منها قصر صغير من الفضة بديع الصنع والزخرف . حتى ملك قلبها واسر لبها . فدفعته الى الامام وحطمت الحوائل من طريقه واعانته على خصومه .

وقد استطاع بذلكه وكفايته وعطف صبح ان ينال ثقة انحكم فلما مات كان هو الذي يقف وراء صبح . وقد اتبعت له الفرصة ليجمع السلطات كلها في يده . فقد كان عبد الرحمن بن الحكم حدثا في الثانية عشرة ، وكان ابن عامر هو الذي نظم البيعة له في حياة والده بعد ان خاف ان يتولى الملك المغيرة اخو الحكم . فلما مات الحكم وخيف انقضاء الصقابة الذين كانوا يؤيدون المغيرة ارسل ابن ابي عامر الى الحكم من قتله . وقد كانت « صبح » ترى فيه حامى عرض ابنها . فرفعته الى مرتبة الوزارة وبدأ التجافى بينه وبين الحاجب جعفر ثم ازداد اضطراما وزاد الصراع وانتهى بان حمل على الصقابة ثم اعتقل جعفرا حتى مات .

وبدا ابن ابي عامر يحجب الأمير هشاما الذي كان ميالا الى اللهو عن الشعب فلم يعد يره أحد . وربما أركبه وجعل عليه برنسا فلا يعرف . واذا سافر وكل من يفعل به ذلك .

وكان ذلك جريا منه على خطته في جمع كل سلطات الخلافة في يده وسحق كل عقبه .

يقول ابن خلدون « ثم تجرد ابن ابي عامر لرؤساء الدولة من عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم . وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم » .

وقد بلغ به الأمر زيادة في التحوط ، ومضيا في تنفيذ خطته أن أنشأ مدينه جديدة في ناحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة . ونفذ الأوامر باسمه ونقشه على السكة .

وغزا المنصور خمسين غزوة عاد منها جميعا منتصرا . فقد كان فارسا وكان خشنا لم تغيره الحضارة ولم يذهب الترف قوة عزيمته . وقد أغار عدة أغارات موفقة جماعته موضع اعجاب الناس وتقديرهم . وكان أوقعها غزوته لنصارى الشمال . وقيل من حزمه أنه كان اذا قدم من غزوة لا يحل من نفسه حتى يدعو صاحب الحيل فيعلم مامات منها وصاحب الابنية ليعلم ما وهى من أسواره وقصوره ودوره .

وقد تعلق به الجيش بعد أن أضاف اليه فصائل جديدة من افريقية ونصارى الشمال واتبع له الاستيلاء على ليون وبرشلونه .

وقصة المنصور في تحطيم خصومه والواقفين على طريقه الى الملك

تعطى صورة تلميذ من تلاميذ مكيا فيلي . وقصته فى عزل ابن المصحفى وإيقاعه بين المصحفى ورئيس الشرطة ، وبغالب رئيس الوزراء ، واتهامه الاول بالخيانة والقائه فى السجن ليعطى صورة قسوته وجبروته فى فرض سلطانه وتعزيز مكانه .

ولعل أبرز صورة لعزيمته الجبارة هو أنه بينما كان يتحدث مع الناس فى بعض شأنه اذا برائحة لحم يشوى . ثم ظهر أنه قد أحضر كواء لكى سساقه بينما كان يناقش من حضروا مجلسه فى هدوء وسكينة . والحادثة الاخرى أنه قتل ولده صبرا بالسيف لانه خالفه فى أمر من الامور .

وقد وصف بأن جسمه خاضع لعقله . وان حب أصبح لم يفتنه لدرجة ان يصرفه عن المجد . وقيل ان لذاته كانت خاضعة لطموحه . حتى انه كان يحتفظ بهدونه فى أشد أوقات المحن والشدائد .

وقد عاش حياته يعمل ويرسم خطط الحرب، ويعد القوات ليدفع بها فى نحر العدو ولم يعرف عنه لهو ولا خمر ولا مائمه . كأنما قد فطم نفسه عن الشهوات . وجردها من الاهواء . وظل يعمل حتى قضى وهو فى خضم الحوادث . واستشهد فى ميدان المعركة .

ولا شك انه أذل خصوم العرب وأحنى رؤوس أعداء الاسلام . وفرق وحدتهم حتى تملقه زعمائهم والتمسوا رضاه .

وقد كان هو قمة المجد فى الأندلس فلما انتهى انطوت صفحة الفرد، وبدأت عهود انضعف والانحدار والتفكك . ولم يقم من يخلفه على هذا . وقد أمضى عشرين عاما يقبض على الأندلس ، ولم تبلغ ما بلغت فى عهده .

وقد اختلفت صبح معه فى آخر أيامها حينما استفاقت من نشوة حبها . وأحسبت بأن الرجل قد ساءب ابنها كل سلطنة . فمضت تؤلب عليه . ولكن المنصور كان قويا فى هذه الجولة أيضا واستطاع أن يقضى على مؤامراتها حين اتفقت مع زيرى بن عطيه حاكم المغرب الأقصى . لقد كان أكبر من الحوادث . ولم يكن هناك اذ ذاك من يستطيع أن يقف فى وجهه . ولا غرو فالمنصور هو ثالث ثلاثة فى الأندلس : الداخل والناصر والمنصور .



« ان حبي للجهاد ينسيني طيب دمشق ورقة هوانها » .

## نور الدين الشهيد

يقول ابن الاثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام . والى يومنا هذا . فلم ار بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، فقصر ليله ونهاره على عدل ييسره وجهاد يتجهز له . ومظاهرة يزيلها . وعبادة يقوم بها . واحسان يرليه . وانعام يسديه .

ويقول العماد الكاتب : كان في الحرب ثابت القدم . حسن المرمى صلب الضرب يتقدم اصحابه . ويتعرض لشهادة . وكان يسأل الله تعالى ان يحشره في بطون السباع وحواصل الطير .

يقول عنه « ابن الاثير » : كان أصبر الناس في الحرب واحسنهم مكيدة ، لم أر على ظهر فرس قط أشجع ولا اثبت منه .

وروى العماد : كان نور الدين بدمشق يلعب بالكرة ليروض خيله ويمرنها . فرأى رجلا يحدث آخر . ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله .

فقال : لى مع الملك العادل حكومة . وهذا غلام القاضي . فالتقى نور الدين الجوكان من يده . وخرج من الميدان . وسار الى القاضي . وهو حينئذ « كمال الدين الشهرزورى » وأرسل الى القاضي يقول له : انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى . فلما حضر مساوى بينه وبين خصمه وحاكمه . فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق . قالوا لا : قال اشهدوا اننى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه . وهوله دونى . وانى كنت أعلم أن لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن اننى قد ظلمته فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له .

\*\*\*

والحق انه اذا ذكر الايمان المقرون بالجهاد والتصوف المرتبط بالدم فى سبيل الله فان أبرز اسم يمكن أن يحقق هذا المعنى هو : نور الدين الشهيد .

عزوف عن الدنيا . وحب لله . وصدق عزيزة فى سبيل جميع الأمة العربية وسحق الصليبيين . حتى أنه قضى حياته كلها فى حروب دائمة . وياغ به الورع انه حرم على نفسه الابتسام والفرح . وقال انه يخشى ان

يحاسبه الله عليه . وفى أرض المسلمين جندى من جنود الفرنجة . فقد روى له حديث متسلسل بالتبسم وطلب منه أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب لذلك وقال : انى لاستحيى من الله أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون من الفرنجة .

وعاش مرابطا للعدو . ومن ذلك قوله : ان حب الجهاد ينسينى طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها . وكان من أصبر الناس على الحرب وأبلغهم مكيدة حتى وصف بأنه أبرع من ركب فرسا . وأثبت وأشجع . ولما فاتته الشهادة مرة ومرة ، أحس بالحزن وكان لا يلبث أن يردد : لقد عزمت على الشهادة غير مرة فلم أبل شرفها . ولو كان فى خير أولى عند الله مكانة لرزقنيها . . وقد تحقق له ذلك من بعد ومات شهيدا .

وقيل أنه لم يكن أحد من القادة كنور الدين فى قيادة الجيوش . يتقدم أصحابه ويتعرض للموت . ويضرب فى صلابة وثبات قدم . وفى كل خطوة والمركة على أشدها ، يسأل الله أن يحشره فى بطون السباع وحواصل الطير . وإذا التقى الجمعان سجد لربه ومرغ وجهه وتضرع وقال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا . . .

ولعل أبرز مواقع صراعه مع الصليبيين موقعه « آنب » التى كانت فى صفر عام ٥٤٤ ، اذ حشد فيها الصليبيون حشودا كبيرة . وحاربهم نور الدين فى ستة آلاف فارس فهزمهم وصرع ابراهيم البرنس ( أبو بيمونت ) الذى كان مشهورا بشدة البأس وقوة الحيل وبعد السطوة وبفضه الشديد للمسلمين . كما أسر « جوسلين » الذى كان من شياطين الصليبيين وأبطلهم وأكثرهم عدا للرب .

وقد استطاع فتح دمشق والاستيلاء عليها كما استولى على حارم وبانياس بعد معارك هائلة أبلى فيها أحسن البلاء . كما سقطت فى يده حصون الفرنجة الشمالية واحدا بعد واحد وفتح مصر بعد حروب شداد . بعد أن هاجمت جيوش الصليبيين ثغورها وحاصرت القاهرة .

### \*\*\*

وقد أعاد نور الدين سيرة العمرين : عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبدالعزيز . كان قواما ينزل المسجد بفس . ولا يزال يركع ويسجد حتى يصلّى الصبح . وكان يرفع يديه طويلا الى السماء ويتضرع ويبكى .

ولقد بلغ من ورعه أنه عاش على سهمه فى غنيمة الحرب ورفض كل مال أرسل اليه . ومن قوله : ان رقبتي رقيقة لا تطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله .

وعاش مدة حكمه يعقد مجالس الخلافات للنظر فى قضايا الرعية ومشاكلها حتى أحبه الناس وتعلقوا به حتى كانوا يضحون عنه بأرواحهم . . وكان الناس فى أشد القلق عندما أصابه المرض .

وامضى أيامه كلها غازيا وما من غزوة يدعو اليها الا ويجتمع له

الاحداث والمتطوعة والفقهاء والمتصوفة فقد كان يحب العلماء ويجمعهم اليه  
ويبحث معهم أمور الدين .

وكان نور الدين ورعا بسيط الملبس خشن الماكل . قد نفذ يده  
من ترف الدنيا وزخرفها ونذر نفسه للجهاد في سبيل الله . وقد عرف  
بكثرة الهبات والصدقات . وقد حملت اليه الهدايا الرائعة فلم يكن  
يلتفت اليها وانما وهبها لبعض من يزورونه من الفقراء .

وقد استجاب الله له فرزقه الشهادة . فمات في ساحة الوغى وهو  
بحارب الصليبيين وينشر روح الكفاح والجهاد في سبيل الذود عن بلاد  
الاسلام .

وكان أول من دعا الى الوحدة العربية للوقوف في وجه الفرنجة مؤمنا  
بفكرته أكبر منه قائدا حربيا وسياسيا ولم يمت حتى خلف للعرب دولة  
موحدة قوية في بد زعيم عبقرى هو صلاح الدين . فقد آمن بأن الوحدة  
هى السبيل الوحيد لتعطيم قوة الفرنجة .

عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد براهيه ، مستصحب لعزمه

## صقر قریش

عبد الرحمن الراحل

قال أبو جعفر المنصور يوما لجلسائه : أخبروني عن « صقر قریش » من هو ، قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء . قال ما صنعتكم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال لا . قالوا : فمن ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية . الذي عبر البحر وقطع القفر . ودخل بلدا أعجميا مفردا ، فحصر الامصار . وجند الجند ودون الدواوين . وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره . وشدة شكيته . ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلا صعبه . وعبد الملك ببينة أبرم عقدها . وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد براهيه مستصحب لعزمه . اقتحم جزيرة شاسعة المحل . نائية المطمع . عصية الجند حزب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيته بسياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل به أبيهم . فاستولى فيها على أريكته ملكا في قضيته . قاهرا لأعدائه . حاميا الذماره . مانعا لحوذته . خالطا الرغبة اليه بالرغبة منه . ذلك لهو الفتى كل الفتى . لا يكذب مادحه ، .

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية الذي وصفه ابن حيان مؤرخ الاندلس فقال : كان عبد الرحمن راجع الحلم . راسخ العلم . نقيب الفهم . كثير الحزم . نافذ العزم . بريئا من العجز . سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة . لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة . ولا يكل الأمور الى غيره . ثم لا ينفرد في ابرامها براهيه شجاعا مقداما ، بعيد العوز . شديد الحذر ، قليل الطمأنينة . بليغا مفوها . شاعرا محسنا . سمحا مقداما . طلق اللسان .

\*\*\*

ويعصور عبد الرحمن الداخل هجرته فيقول :

لما أعطينا الأمان ثم نكت بنا على نهر أبي فطرى . وأبيحت دماؤنا اتانا الخبر . وكنت منتبذا من الناس . فرجعت الى منزلى آيسا . ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفا حتى صرت على قرية من الفرات . ذات شجر وغياض . فبينما أنا ذات يوم بها وولدى سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذ أربع سنين فخرج عنى ثم دخل الصبى من باب البيت باكيا فزعا . وجعلت أدفعه وهو يتعلق بى . فخرجت لانظر واذا بالخوف قد نزل

بالقرية ، وإذا بالرايات السود منحطة عليها . واخ لى حديث السن يقول:  
 النجاة النجاة فهذه رايات المسودة . فأخذت دنائير معى ونجوت وأخى .  
 وأعلمت أخواتى بمتوجهى فأمرتهن أن يلحقننى مع مولائى بدرأ . وأحاطت  
 الخيل بالقرية فلم يجدوا لى أثرا . فأتيت رجلا من معارفى فأمرته .  
 فاشترى لى دواب وما يصلحنى فدل على « عبد الله العامل » فأقبل فى خيل  
 له يطلبنى . فخرجنا على أرجلنا هرابا والخيل تبصرنا فدخلنا فى بساتين  
 على الفرات فسبقتنا الخيل على الفرات فسبحنا . أما أنا فنجوت والخيل  
 يتناودننا بالأمان ولا ارجع . أما أخى فانه عجز عن التسباحة فى نصف  
 الفرات فرجع اليهم بالأمان وأخذه وقتلوه . وأنا انظر اليه وهو ابن ثلاث  
 عشرة سنة . فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى فتواريت فى غيضة حتى  
 انقطع الطلب عنى وخرجت فقصدت المغرب حتى بلغت أفريقية .

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . الذى فر من ظلم العباسيين  
 بعد أن استولوا على الملك ومضوا يستأصلون شافه الامويين . فظل يضرب  
 فى القفاز حتى وصل الاندلس فأقام دولة ضخمة . وكان عمره تسعة  
 عشر عاما عندما وصل الى شاطئ الفرات وعندما عبر البحر جاعدا حتى  
 وصل الى الشاطئ الآخر فرارا من الرايات السود التى كانت ترمع اختطافه  
 . فلما وصل الى اليباسة ظل يضرب فى الارض ، حتى وصل الى افريقيا .  
 فعبر فلسطين ومصر حتى نزل بلاط عبد الرحمن بن مصعب الفهرى : أمير  
 المغرب . ومنها عبر الى الاندلس فبث فيها دعوة الامويين من جديد فاستجاب  
 له الناس والتفوا حوله فكون ذلك الملك العريض . وكان المنصور الد أعدائه  
 ولكنه أنصفه من نفسه حين وصفه بصقر قریش .

ولا شك أن صقر قریش كان شخصية ممتازة حقا . هى التى مكنته  
 من الوصول الى هذه الذروة . وأتاحت له القدرة على تحطيم كل عقبة .

وصف بأنه كان مديد القامة نحيف القوام . أصهب خفيف العارضين  
 . له خال فى وجهه . يؤثر لبس البياض ويعتم به . أعطى هيبه من وليه  
 وعدوه . يحضر الجنائز ويصلى عليها . ويصلى بالناس الجمع والاعياد .  
 ويخطب على المنابر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم .  
 وقد شبهه أبو حيان بالمنصور فى قوة شكيمة ومضاء عزمه وفى  
 القسوة والصرامة والاجترأ على الكبائر .

ويبدو بالإضافة الى هذا أنه كان قاسيا فى مقاومة الدسائس ، ومرد  
 هذا الى نفسيته التى أكسبتها الاحوال الصرامة والقدرة على مواجهة الدماء  
 المسفوكة دون وجل . فهو لم يكن يتورع عن الغدر والاغتيال للقضاء على  
 خصومه ، بل لقد ذهب فى صرامته الى حد البطش بكثير من أصدقائه  
 الذين آووه يوم مقدمه شريدا لا عصبية له .

يقول دوزى مؤرخ الاندلس : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا .  
 ذلك الصارم المنتقم الذى لا تأخذه رافة . ولم يبق ثمة زعيم عربى أو  
 بربرى يجزؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية .  
 ولم يك ثمة رجل خير يرغب فى خدمته . كان هم عبد الرحمن الدائم أن

ينزل العرب والبربر الى الطاعة • وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام  
وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية الى جميع الوسائل التى لجأ اليها ملوك  
القرن الخامس عشر لسحق الاقطاع ، •

وقد حكم عبد الرحمن الاندلس ثلاثة وثلاثين عاما واخضع العرب  
والبربر واتخذ من قرطبة حاضرة لامارته •

وكان شاعرا جيد النظم • ناثرا فصيح البيان • قوى الترسل • عالما  
بالشريعة لقد كانت الاندلس يوم دخلها عبد الرحمن متعبة مجعدة تتطلع  
الى زعامة قوية ، والى شخصية ممتازة توحد كلمتها وتأم شملها •

وكان عبد الرحمن هو البطل الذى جدد الاندلس وبعث دولة  
الامويين بعد سقوطها فى الشرق •  
توفى عام ١٧٢ هـ •

\*\*\*

## أبو مسلم الخراساني

عبد الرحمن أبو مسلم

شخصية جارفة . نادرة . قلما تمر في التاريخ الا في مراحل متباعدة . استطاع في سنوات قليلة . وفي سن العشرين ان يحدث انقلابا ضخما كان بعيد الأثر في التاريخ الاسلامي كله ، حين نقل الخلافة من بيت الى بيت . والحكم من دولة الى أخرى . فانهزمت العربية الخالصة . وانتصرت الفارسية الجديدة .

اكتشفه « ابراهيم الامام » عندما قدمه اليه « سليمان بن كثير » كبير الدعاة في الدعوة السرية العباسية . وكان يعمل مع ابني معقل العجلي . فلما رآه الامام أسماه عبد الرحمن بن مسلم ، وزوجه ، وقال له « لا يتم الامر الا بذلك كما وجدته في الكتب » ونسبه الى بني العباس .

وهو فارسي . ولد بأصبهان . ورحل في السابعة من عمره الى الكوفة . ولم يلبث ابراهيم الامام ، ان سلعه مقاليد الدعوة في خراسان . وانفذه الى أبي موسى السراج ، والى كبار الدعاة هناك . وكتب له كتابا بعد من أقوى الدعائم في نجاحه :

« يا عبد الرحمن : انك رجل منا آل البيت فاحفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فآكرمهم . وحل بين أظهرهم . فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم . وانظر الى هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في أمره . ومن كان من أمره شبهة . ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل . وأبما غلام بلغ خمسة اشبار تهمه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه . وإذا أشكل عليك أمر فاكثف به مني » .

والشيخ هو « سليمان بن كثير » وقد قتله أبو مسلم آخر الامر حين لامسه الشك فيه ، واستطاع أبو مسلم بما أوتي من صفاته الشخصية الممتازة ان يصبح كل شيء في هذه الدعوة وأن يوقع مضر في ربيعة . ويستفيد هو من خصومتهم ووقيعتهم . وامكن بذلك ان يضرب ملك بني أمية الضربة القاضية . وأن يغير مجرى التاريخ .

وكان « أبو مسلم » على هذه السن الصغيرة ، غاية في الحزم والهيبة . وقد أعطاه كتاب « ابراهيم الامام » قوة على ان يزيل من طريقه أي شخص . وأن يحقق الغاية التي طبع عليها نفسه وهي

السيطرة . فقد كان لا يعرف العاطفة ، ولم يكن من الذين يتسمون  
أو يلهون . ولم يتورع من القتل على الشبهة ، والفدر بأقرب الناس اليه .  
وأتاحت له براعة سياسية الى جانب هذه الشخصية المخوفة ،  
كما عرف كيف ينسق بمهارة معارك الحرب .

ويتبع هذا ما عرف عنه من انه رجل لا مجال للمرأة في حياته . فقد  
غلبت مطامع المجد والظفر بالسلطان على نفسه . وقد بلغ غاية غاياتها .  
ثم كان المجد سببا في مصرعه .

وكان هذا القصر الحازم الاسمر ، العريض الجبهة ، الفصيح  
الطليق البيان ، انتقام القدر لمقتل الحسين من أمية . نقوض دعائمها  
وهدم صرحها .

سأله رجل عن السر في السواد فقال له : ان الرسول كان يلبسه ،  
ولم يلبث ان أشار الى السيف بأن يقطع عنقه . وبذلك أقام حوله  
سياجا من الهيبة والرهبة .

وأخرج أبو مسلم الدعوة العباسية من دور الاعداد بعد أن طال بها  
الوقت دون أن تجد قائدا . واستطاع ببراعته أن يفرق الجموع وأن  
يزيل من طريق الدولة الجديدة كل الاشواك .

وقيل : انه لما وصل الى خراسان « تشمر للدعوة واخذ القوم  
بالبيعة . ووجه كل رجل من أصحابه الى ناحية من خراسان . فكانوا  
يدورون بها كورة كورة . وبلدا بلدا في زى التجار . فاتبعه عالم من  
الناس عظيم . فواعدهم لظهوره يوما سماه لهم . وولى على كل من  
بأيعه فى كل كورة رجلا من أهلها . ويقدم اليهم بالاستعداد للخروج فى  
ذلك اليوم الذى سماه لهم . حتى جاب جميع ارض خراسان وجبالها  
واقصاها وادناها . وبلغ فى ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله . واستتب  
له الامر على جهته وصار من اعظم الناس منزلا من شيعة . حتى كانوا  
يتحالفون به فلا يمتنون ويذكرونه فلا يملون » .

وقد استطاع أبو مسلم أن يحقق ماتوقعه فيه الذين اختاروه ،  
فقد بلغ الذروة وانتصر ، ولكن ما كاد أن يتم هذا الامر حتى اخذ نجمه  
فى الافول ، فقد انتقم منه الذين جاء بهم الى الملك كأنما يكره الملوك من  
يحملهم الى الملك . وقد بدأ ذلك بمرحلة من الدس والوقعية انتهت  
بقتل المنصور له .

لقد تحول الموقف النفسى بين أبى مسلم من ناحية والسفاح  
والمنصور من ناحية أخرى ، بعد أن انتهت المعركة مع خصومهم ، بدأت  
معهم . لقد أحس هو أن خاتمة الجهد الضخم الذى بذله قد انتهت  
بالنسبة اليه الى لا شيء ، الا أن يرسل لمحاربة خصوم العباسيين واحدا  
بعد الآخر ويرسل وراءه من يحصى عليه الفنائم . حتى قال كلمته  
المعروفة « أمين فى الدماء خائن فى الاموال » . وظل السفاح والمنصور  
يضربان به خصومهم . ويرسلانه فى معركة وراء معركة عليهم يتخاضعان  
منه .



وسافر المنصور الى مقر ابي مسلم ليأخذ منه البيعة لنفسه بعد أن ولي الخلافة ، فضايقه أن وجد لأبي مسلم نفوذا ضخما بين جنوده . ورأى الطاعة المطلقة من اتباعه له . ولمس اثره السحري في نفوس أصحابه واعجاب الناس في كل مكان به كبطل حطم دولة . واقام دولة .

وضايق أبا مسلم كاتسان أن كلا من السفاح والمنصور كان ينظر الى نفسه أنه صاحب الدولة ومقيمها . وانهما لا يعترفان به ولا بحقه من تذليل الملك لهم . اصف الى ذلك أن أبا مسلم كان منتصرا في معركة ضخمة . وكان في سن الشباب الباكر . وأنه قد انتهى من المهمة التي كانت تملا نفسه . فهنا منطقة فراغ . كيف تملا ؟ لقد ملأها زهو الانتصار . وامتزج بها الحقد على « العباس » الذي كان متواريا هناك ، ثم جاء اليوم فأصبح خليفة ، له المكان الأول في الدولة كلها . اليس هو الذي سهر وكد وجاهد وقاتل حتى أبلغهم هذا المكان .

اضف الى ذلك اشياء أخرى رآها المنصور من كبرياء أبي مسلم وتعاليه عليه ، كل هذا كون حالة من القلق النفسي والترقب والترصد . وكأنما كان يطمع أبو مسلم أن يقتل المنصور . وكان في خاطر المنصور نفس الرغبة .

وقد انتهى الامر الى غايته التي كان لابد أن ينتهي اليها .

وأفضى المنصور ما في صدره الى أبي مسلم قبل قتله ، وفيه ذلك الحقد الدفين الذي كان يملأ نفسه : لو أرسلنا أمة لفعلت ما فعلت . تتقدمني في موسم الحج . وتكتب بادئا باسمك . وتخطب اختي .

تلك جرائم أبي مسلم . . الذي كان في الواقع قوة مستقلة بنفسها عن الخلافة ، كان معه الجند . وبذلك كان يخشى أن يحدث أي تغيير . فضلا عن احساسه بأنه هو صاحب الانقلاب .

ويبدو هنا العجب ، فهم الذين جعلوه منهم « آل البيت » ثم سجبوا هذا الاستحقاق بعد أن أتم مهمته .

وفي طريق الموت . . وفي موقفه تنكشف النفوس وتتعري . وتذهب عنها الصولة وتسقط المهابة . وتبدو الصورة على طبيعتها البشرية العنيفة خالية من زيف المظهر وبريق السلطان . فهذا أبو مسلم بين يدي المنصور قاب قوسين أو أدنى من الموت . وعبارات المنصور المتهبة تلقى عليه . ويحس هو الموت وبراه قريبا منه فتزول عنه كل معالم الجبروت والصولة . وتنمحي كل مظاهر الكبرياء والافتة وتنطوي تلك الصور التي كان فيها « أبو مسلم » طاغية يقتل على الظنة ، وتنحني له الجباه . ولا يقف أمر دون ارادته الفاتكة . فتراه ذليلا ضارعا . وينجلي من الناحية الأخرى : الفدر والعسف وانتقاص الحقائق الواضحة .

أبو مسلم : لا يقال هذا لي بعد بلاني في دولتكم وما كان مني . .

المنصور : لو كانت أمة مكانك لجززت ناصيتها . انما عملت ما عملت  
فى دولتنا وبسلطاننا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتىلا .

ابو مسلم : يا امير المؤمنين استبقنى لعدوك .

المنصور : لا ابقانى الله اذن . واى عدو اعدى لى منك .

وسقط ابو مسلم مضرجا فى دمائه . . وانتهت حياته وهو فى  
الخامسة والثلاثين من عمره . وانطلوت صفحته على هذه الصورة  
الرهيبة . حياة كلها دماء وحروب وخداع وغدر .

وكم قتل ابو مسلم على الظنة اناسا اتهمهم وشك فى تصرفاتهم  
واقدارهم . وكم سهر الليالى يجالذ القدر ليقيم دولة . غاذا ما قامت  
به كان هو وقودها .

ومقطع القول فى هذا ان ابا مسلم استأمن فملاه الفرور بالنصر  
ولو كان ظل وفيا للدين عمل معهم لمضت الدولة قوية عزيزة ولفل له  
مكانه . .

❖ ما رأيت ما ترون الا بالاقلام فاجهدوا انفسكم في طلب العلم .

## أسد بن الفراء

القاضي الذي قاد اساطيل الفتح . والفقيه العالم الذي تحول الى أمير من أمراء البحر بعد سن الستين . ولد في نجران ، ثم ذهب مع أبيه الى افريقية . ثم عاد الى المشرق حيث زار الحجاز والعراق ومصر فأمضى بها عشر سنوات . تلقى الفقه على مالك بن انس في المدينة . ومحمد بن الحسن في بغداد . وأشهب بن عبد العزيز في مصر . ألف كتابه « الاسدية في الفقه المالكي » وقد كان لراحته هذه اثرها البائع في نفسه ومستقبله . فقد احتشد حوله الطلاب في كل مكان . وكان يقول : « ضربنا في طلب العلم آباط الابل . واغتربنا في البلاد . ولقينا العلماء . وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه . ووراء سياج أمه ويريدون بعد ذلك أن يلحقونا » .

وقد كان له بلاغة وبيان . ولكنه كان بالعالم اشهر . فقد كان من الصنف من العلماء الذين يصغر في أعينهم أهل الدنيا . ولا تملك عليهم سطوة السلطان السنتهم فيداهنهم .

روى انه دخل هو وأبو محرز على « المنصور » يوم ثار على « زيادة الله » واستولى على القيروان ، وهما قاضيان فقال لهما : اخرجنا عنى . أما تعلمان أن هذا البائس - يعنى « زيادة الله » - ظلم المسلمين ؟ أما أبو محرز فخالطه رعب . وقال له : وانه ظلم اليهود والنصارى . أما أسد بن الفراء فانه ماك جأشه وأثر أن يقول كلمة حق عن أن يسكت امام صولة باطل . فقال له : كنتم أعوانا له قبل هذا الوقت وأنتم وهو على مثل هذه الحال . ولما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فذلك يسعنا الوقوف عنه وحده .

وفي عام ٨٢٧ خرج أسد بن الفراء على رأس اسطول متجه صوب صقلية في تسعمائة فارس وعشرة آلاف رجل من المجاهدين . وورست السفن في ثغر « مازر » في طرف الجزيرة الغربي وهو اقرب ثغورها الى افريقيا ، ثم نفذ على رأس جنده الى شرقي الجزيرة لمقاتلة الروم ، فهزم الروم في معركة كبرى وغنم أسلابهم واستولى على عدة حصون داخل الجزيرة . ثم حاصر سرقوسة من البحر والبر . ووصل الى قلعة الكرات المنيعه فحضر الحصار حولها وبث السرايا . وامتد القتال من سرقوسة شرقي الجزيرة الى بلرم في شمالها الغربي .

ويروى المؤرخون أن « أسدا » هو الذي عرض نفسه ليخرج مع الجيوش المحاربة فلما وثق « زيادة الله » من صدق عزيمته أذن له

بالخروج على أن يكون أمير الجيش في هذه الغزوة . وقد أبقي له اسم القضاء فأصبح قاضيا أميرا . وهو ما لم يجتمع لاحد غيره في افريقية، شأنه في ذلك شأن يحيى بن اكثم حين كان يخرج بالصائغة الى أرض الروم . ومنذر بن سعيد قاضي الامويين بالاندلس .

وكان اسد قد فتح « قوصرة » وهي جزيرة صغيرة واقعة بين تونس وصقلية .

### \*\*\*

ولقد مضى اسد بن الفرات في غزو صقلية ، غير أن القدر لم يمهله ليتم رسالته فقد استشهد حين ذاك . وقد رآه بعض المعاصرين له وفي يده اللواء فحملوا عليه فقال للناس مشيرا الى جيش العدو قائلا : هؤلاء عجم الساحل . هؤلاء عبيدكم لا نهابهم . وحمل اللواء وحمل الناس معه فانهمزم خصومه . فلما انصرف « اسد » رأى والدم قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت ابطه . وقد كان على ثقة من انه سيكسر جيش الروم مهما بلغ من الكثرة . وروى انه لما اشتد به الجوع . واضطر هو وجنوده الى اكل لحوم الخيل سعى اليه بعض من طلب منه العودة الى افريقيا فغضب وقال : ما كنت لأكثر غزوة على المسلمين . وفي المسلمين خير كثير . ثم مضى في عزمته ففتح أكثر البلاد حتى استشهد في سرقسطة .

وتعطى وقائع حياة اسد بن الفرات صورة رائعة لشخصية هذا القاضي الذي أحب العلم . وشغف به . وفتح له باب المجد . وآمن بالجهاد حتى وهب نفسه له واندفع يطلب الاشتراك في الحملة المتجهة الى صقلية وهو في سن الستين فوكل اليه الحاكم قيادة الحملة فأبلى بلاء حسنا ، ومضى يجاهد في عزم واصرار حتى ذلت له الصعاب . وتأكد له الظفر . واستشهد وهو يحمل العلم والدم يسيل منه لا يبالي حتى لا يسقط اللواء من يده . وقد وصف نفسه عندما ولي أمانة الحرب بقوله : « والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا أحد ولاية قط . وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام فاجهدوا انفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته » .

وقد توفي اسد بن الفرات شهيدا عام ٨٣٢ م ، ثم أتم المسلمون فتح الجزيرة بعد أن وصلتهم امداد من المجاهدين المفاشرين . واسسوا بها امارة كانت تابعة لحكومة افريقية . ولبثت الدولة الاسلامية بها زهاء قرنين وأصبحت معقلا بحريا تخرج منه البعث والحملة فتجوس خلال المياه الايطالية وتصل حتى روما .

\* لقد جئناكم بأرضهم .

## النعمان بن مقرن

قال عمر قبل غزوة نهاوند : اشيروا على رجل اوله امر هذه الحرب وليكن عراقيا ، فاشاروا عليه به . فبات عمر يفكر ويدبر فلما أصبح الصباح قال : اما والله لأولين أمرهم رجلا يكون اول الأسنة اذا لقيها غدا : النعمان بن مقرن . قال الناس : هو لها ..

وكتب اليه : بلغني أن جموعا من الاعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فاذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله ويعون الله وبانصر الله بمن معك من المسلمين . ولا تؤتهم وعرا فتؤذهم ولا تمنعهم من حقهم فتكفرهم . ولا تدخلتهم غيضة فان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار . فسر في وجهك هذا حتى تأتي «ماه» فاني قد كتبت الى اهل الكوفة أن يوافوك بها . فاذا اجتمع اليك جنودك فسر الى « القيروان » ومن جمع معه الاعاجم من أهل فارس وغيرهم .

\*\*\*

وكان « النعمان بن مقرن » من الذين استجابوا للدعوة الاسلامية عندما بزغ فجرها . واشترك في الوقائع كلها مع رسول الله . فلما ارتدت العرب بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان في مقدمة الفرسان الشجعان الذين حملوا اللواء للدفاع عن الاسلام والدود عنه .

وقد عرف بأنه فارس مقدم لا يعرف التردد ولا الفرار غير متسرع الا لفرصة . كان على ميمنة أبي بكر حين خرج لقتال الذين منعوا الزكاة ، فهزمهم بنى القصة . وكان الى جوار خالد في غزواته .

ولما ولي سعد القيادة كان في المقدمة . برز في القادسية وفي فتح العراق العربي . وأبلى في حروب خوزستان .

وولاه سعد جباية الخراج . وهو يحب الجهاد فكتب الى عمر يطلب منه أن يدفع به في نحر العدو ، فلم يلبث عمر أن كتب الى سعد يقول :

ان النعمان كتب الى يذكر انك استعملته على جباية الخراج . وانه قد كره ذلك ورغب في الجهاد فابعث به الى اهم وجوهك .

\*\*\*

وكان « النعمان » من بين أعضاء وفد سعد الى « يزدجرد »

يطلبون اليه الاسلام او الجزية او المناجزة . فقد كان من اهل الراى والسياسة والشجاعة . وىروى انه هو الذى رد على يزدرج ، حين قال :

ما الذى اقدمكم على هذه البلاد . اتراكم جراتم علينا لما تشاغلنا بانفسنا .

فوقف يدافع عن الاسلام فى لسان بليغ . وعبرة اخاذه . قال :

« ان الله رحمتنا فارسل الينا رسولا يدلنا على الخير . ويأمرنا به ويعرفنا بالشر وينهانا عنه . ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صارت فرقتين . فرقة تقاربه واخرى تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص . فمكث بذلك ما شاء الله ان يمكث . ثم امر ان ينبذ الى من خالفه من العرب وبدا بهم وفعل . فدخلوا معه جميعا . ثم امرنا ان نبدا بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوهم الى ديننا . وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح . فان ابيتم قامر من الشر أهون من آخر شر منه ، الجزية . فان ابيتم فالمناجزة . فان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله واقمناكم عليه على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم . وان ابيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم . والا قاتلناكم » .

ومضى كسرى يناقشه فى انفة . وهو يجيب عليه فى صرامة وقوة . حتى قال له : ارجعوا الى صاحبكم فأخبروه انى مرسل له « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية . ولم يدعهم حتى حملهم التراب . ففرح به النعمان وذهب الى « سعد » فرحا يقول : لقد جئناكم بأرضهم .

ولما تلاقى الفريقان واحتدم القتال تحقق النصر للمسلمين وتحطمت مقاومة الفرس واندهروا وفروا .

ثم ولى « النعمان » ولاية « كسكر » فضاقت بها . وكتب الى الخليفة يطلب اليه ان يقذف به فى حومة القتال فما هو وهذه الولاية . لقد كره الإقامة وضجر من الطمأنينة . واحب ان يندفع فى ميدان الحروب يكابد الاهوال ويجالد الرجال .

واعتزم « يزدرج » ان يثار للقادسية فجمع قواه ، وتأهب لمعركة فاصلة . وكاد عمر ان يخرج من المدينة ليقف بنفسه فى وجه الفرس . ثم رأى ان يختار رجلا يستطيع ان يواجه هذا الخطر فكان « النعمان » على نحو ماوصفنا فى أول الفصل .

وسار النعمان على تعبئة حتى نزل قريبا من حصون اعدائه . وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات زلزلت الاعاجم فى ثلاثين الفا يقابلهم خمسون ومائة الف متحصنين فى بروج ذات منعة .

وهاجمهم القعقاع ورمى المدينة بالنبال واظهر العزم على اقتحام الاسوار . وثبت لهم القعقاع حينما ثم اظهر الفرار وولى بجنده مدبرا فخرجوا فى أثره . وتابع القعقاع فراره . وتابع الفرس مطاردته . وخلت

نهاوند من حمايتها ولم يبق بها الا حراس ابوابها ، فلما بعدوا عن المدينة .  
ولم يبق لهم مطعم في حماية حصونها ، فوجئوا وقد وقف المسلمون  
وثبتوا للقتال .

ولما حان للشمس أن تنحدر نحو المغيب ركب «النعمان» وجعل  
يعر على الرايات يشجع الناس ويحرضهم . ودعاهم أن يستعدوا فاذا  
كبر ثلاثا حملوا معه وقال فيما قال : « فاذا كبرت الثالثة فاني حامل  
ان شاء الله فاحملوا معي . اللهم أعز دينك وانصر عبادك . واجعل  
النعمان أول شهيد اليوم على أعزاز دينك وانصر عبادك » .

وكان معلما في وسط الجيش ببياض القباء والقلنسوة فلما كبر ثلاثا  
اندفع وفي يده اللواء فانقض على العدو انقضاض العقاب وأخذ يطيح  
بالرءوس ويجندل الفرسان . وشد المسلمون حوله . ومضوا يقاتلون  
الفرس حتى تصافحوا بالسيوف . وقد سقط من جنود الاعداء عدد  
ضخم حتى كادت الارض تميد بالدماء ، وبينما هو يشق طريقه ذلق  
جواده في الدماء فصرعه واستجيب دعاؤه واستشهد .

ولكن المسلمين واصلوا الحرب . وحمل القعقاع اللواء وقتل  
الغيزان قائد الفرس وأخفى خبر مقتل النعمان عن المسلمين فاندفعوا  
في النصر حتى غايته .

وهكذا حقق النعمان أمنيته ومات شهيدا في حومة الوغى . بعد  
ان امضى حياته مجاهدا في سبيل نصره الحق .

وهو في جماع صور حياته رمز لهذه الشخصية الاسلامية التي  
قدمت نفسها فداء لفكرة وهدف وغاية .

ولقد كان من ذلك النوع المكث الذي لا يسرع الى الحرب حتى  
يثق من موقفه فضلا عن فهمه للروح العسكرية وتشبعه بها . وكان الى  
ذلك شجاعا مقداما لا يهاب شيئا فيه عزيمة وفيه فداء وفيه ايمان  
بالشهادة والموت في سبيل الله ، لا يبالي على أى جنب كان في الله  
مصرعه .

وكان بعد نظره ، وسرعة خاطره ، وبراعة تدبيره من العوامل البعيدة  
الاثر في برونزه وعلو قدره .

الرجل الذى نقل أسطولا بحريا فوق التلال والهضاب لأول مرة  
فى تاريخ الحرب .

## مُحَمَّدُ الْفَاتِح

علم من أعلام الفتح استطاع أن يكتب اسمه بحروف من نور  
ويسجل فخرا للإسلام عجز عنه المسلمون . وطمعوا فيه . ورغبوا  
إليه . منذ منتصف القرن الأول عندما أعد « معاوية » الشواتي  
والصوائف لحصار القسطنطينية من البر والبحر . ثم عادت مرات  
ومرات خلال سنوات متوالية دون أن تنال شرف هذا الفتح الذى حققه  
محمد بعد ذلك بتسع قرون .

ومحمد الفاتح شاب استقبل حياته بأمل ضخم ورغبة ملأت عليه  
نفسه هى « فتح القسطنطينية » ، وهو أمر لم يكن يتخيله متخيل لانه  
اقرب الى المستحيلات . ولكن محمدا أحال هذا الخيال المستحيل الى  
حقيقة نافذة . وفى هذا الحادث وحده نجد شخصية الرجل المفامر  
الطموح .

لقد كانت « القسطنطينية » رمز الحضارة الاوربية . وملاد  
الديانة المسيحية . وكان الاستيلاء عليها عنوانا على تحول ، ورمزا على  
انقلاب . فمئذ وقعت القسطنطينية فى قبضة الاتراك بدأت صفحة  
جديدة من صفحات التاريخ فى الشرق والغرب . وكان محمد هو كلمتها  
الاولى .

وهو عند كثير من الباحثين من اعظم صناع التاريخ . وقد عرف  
محمد الفاتح منذ شبابه بحبه للتفوق وميله للسيطرة والطموح وحسن  
معالجة الامور . وكان الاسكندر المقدوني هو الشخصية الاولى فى  
تقديره . ولعل توليه الملك فى سن الحادية والعشرين . ومباشرة الحكم  
فى حياة ابيه مما جعله أكثر خبرة للامور وتجربة للرجال .

وقد ورث « محمد » عن ابيه الجلد والشجاعة وشدة المراس  
ولصبر على المكاره وشغف منذ صباه بأمور الحرب ، ووضع الخطط  
الحربية وحصار المدن .

وقد اناحت له هذه الوراثة مزيدا من كمال الشخصية . فقد كان  
ابوه من سلالة آل عثمان . وكانت أمه مسيحية فكأنما امتزج الشرق  
بالغرب فى كيانه . ولذلك لم يكن متعصبا أو ضيق الافق . وعزف محمد  
عن الترف . واحب الخشونة فى طعامه وملبسه وأخذ نفسه بالعظيم من  
الامر . فلم تكن له محظيات . ولم يكن يألف مجلس الندماء . وكانت



العزلة والوحدة حبيبة الى نفسه فظهرت روحه من عوامل الاختلاط التي عرفتھا قصور الملوك والخلفاء .

ووصف بأنه قمحي اللون متوسط الطول ، متين العضلات ، فارسا ، طموحا ، سريع البديهة . تعلم عدة لغات أجنبية . وحرص على قراءة سير العظماء والابطال وخاصة القياصرة .

ولذلك فانه ما كاد يبدأ في حملة القسطنطينية حتى احكم الخطة . ودرس مختلف الاحتمالات . ثم كتم اسراره حتى بدأ التنفيذ في قوة واحكام .

وكانت الحرب مدى شغفه ، حتى كان يسرع الى التعرف لكل جديد في اساليبها واختراعاتها . وكأنما كانت فكرة افتتاح القسطنطينية تملا عليه حياته فعاش يحلم بها ويفكر فيها ويرسم لها الخطط .

ولعل ابرع ما في خطته كلها نقل البواخر الحربية الضخمة من بحر الى بحر . ومن بوغاز الى بوغاز وفق اسلوب لم يعرف من قبل في الحرب . حتى لقد فاجأ العدو اعنف المفاجأة . فاعجزه عن مقاومة خطة جريئة عجيبة لم يكن مستعدا لها او يحسب حسابها .



ولى الخلافة في فبراير ١٤٥١ وهو ابن السلطان مراد . وقد روى انه عندما علم بخبر موت أبيه ، امتطى جواده وقطع به مائة وعشرين ميلا في فياني آسيا الوسطى حتى بلغ الدردنيل ثم عبر الى غاليبولى .

وقد بدأ يحقق فكرته بأن بنى قلعة في منطقة « روميلي حصار » بعد ان عبر المضيق الى الشاطئ الغربى . وفي ليلة واحدة نقل عشرة آلاف رجل من عماله وصناعه ليقبضوا هذه القلعة . وارسل رسله في شتى أنحاء مملكته يدعون كل راشد الى حمل السلاح . وجمع وزراءه واعوانه وأعلنهم بعزمه على غزو « بيزنطة » والاستيلاء عليها .

وكان قد درس قلاع القسطنطينية واسوارها المتينة الضخمة . ومنها سورها الغربى الذى يبلغ طوله خمسة أميال من الحجر الصلب من فوقها قلاع ضخمة تقوم في صفين او ثلاثة صفوف وهى التى شيدها الإمبراطرة والمتعاقبون صونا لمصنعتهم ورمزا لسلطتهم وبه استطاعت ان ترد ما تعاقب عليها من غارات القبائل المتبربرة .

وفكر محمد الفاتح في ان يعد سلاحا جديدا للحرب . فصنع مدفعا يقذف اكبر قذيفة الى أطول مدى . وقد استطاع صنع هذه المدافع الضخمة التى أطلق عليها « قذائف الصخور » بعد ان نقل الكتل الضخمة من الحديد والنحاس من مصانعها في آسيا الصغرى الى حيث تقوم امام اسوار القسطنطينية .

وامضى الآلاف من الناس الايام والاسباع والشهور المتعاقبة في تعبيد الطريق الى المدينة وفي صنع العربات التى تحمل المدافع ، حشد

لجرحها خمسين من الثيران القوية وفقدت في شهور طويلة في تسلق الهضاب والتلال والهبوط الى الوديان الى أسوار القسطنطينية التي شهدت ثلاثين عاماً من الحديد تنجيه اليها ومضت المدافع تقذف الاسوار فتثير الغبار ثم تتركها وقد فتحت فجوات بها وامتد الحصار ٥٠ وأرسلت أوربا ثلاث سفن كبيرة لتدافع مع أهل القسطنطينية عن مدينتهم . هنالك بدأ أسطول محمد الفاتح المؤلف من مائة وخمسين سفينة صغيرة يقذف قطع الحديد وكرات النار على المراكب الداخلة الى الخليج .

ولكن محمدا الفاتح رأى أن ذلك كله لا يجدي في دفع غارات المغيرين ولا في كسب النصر الحاسم . لذلك فكر في هذه الخطة العجيبة التي أذهلت خصومه وأدهشت المؤرخين على مر العصور ، فقد رأى أن ينقل أسطوله الواقف في البحر فوق اليابسة وينزله في الطرف الثاني من القرن الذهبي .

ولاول مرة ينقل أسطول بحري فوق التلال والهضاب ، فجاء بكتل ضخمة من الخشب ونشرت الواحا صنعت منها صناديق . ووضع في كل منها سفينة من سفن الاسطول . وجيء بالوف العمال الذين أخذوا يعبدون الطريق الجبلى المؤدى الى القرن الذهبي مخترقا التلال . وهو في نفس الوقت يغطي خطته بموالة مدافعه ضرب أسوار القسطنطينية حتى يباغت العدو بالعمل الخطير .

فاذا كان الصباح نقل الاسطول البحرى وانزل الى مياه القرن الذهبي وفوجيء العدو بمشاهدة أسطول محمد الفاتح وهو يدق الطبول .

وظل الحصار مضروباً على المدينة ستة أسابيع .

وفي ليلة ٢٩ مايو ١٤٥٣ قرر محمد الفاتح مع رجاله مهاجمة المدينة ، واندفع الجنود الى ثغرة في الاسوار فنفذوا منها الى المدينة ، ولم تلبث أن سقطت القسطنطينية بين أيديهم . وسقط الامبراطور قسطنطين تحت الاقدام .

ولما دخل محمد الفاتح المدينة اتجه الى كنيسة ايا صوفيا . وقبل أن يدخل بابها سجد لله شكراً ثم حمل حفنة من ترابها ووضعها على رأسه . فلما أتم صلاته ودعائه نهض ودخل الكنيسة وأحالها مسجداً وجمع فيها رجاله فصلوا صلاة الفتح .

تم الكتاب

# الفهرست

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
عمر بن الخطاب	٧
علي بن أبي طالب	١٤
خالد بن الوليد	١٨
الحسين بن علي	٢٣
طارق بن زياد	٢٧
قتيبة بن مسلم	٣٠
عقبة بن نافع	٢٣
أبو عبيدة بن الجراح	٣٦
محمد بن القاسم الثقفي	٣٩
سعد بن أبي وقاص	٤١
المثنى بن حارثة	٤٥
صلاح الدين الأيوبي	٤٩
أبو ذر الغفاري	٥٤
الحسن البصري	٥٨
منذر بن سعيد	٦١
عمرو بن العاص	٦٣
عمر بن عبد العزيز	٦٦
معاوية بن أبي سفيان	٧٠
أبو جعفر المنصور	٧٤
هارون الرشيد	٧٧
عبد الرحمن الناصر	٨٣
الحاجب المنصور	٨٦
نور الدين الشهيد	٨٩
صقر قريش عبد الرحمن الداخل	٩٢
أبو مسلم الخراساني عبد الرحمن أبو مسلم	٩٥
أسد بن الفرات	٩٩
التعمان بن مقرن	١٠١
محمد الفاتح	١٠٤



# مطالعة الدار القومية

١٥٧ شارع مصيد - روض الفرج

تليفون } ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤  
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨